بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قال أبو محمد عفا الله عنه : أفضلُ ما أبتدىء به حمد الله عزّ وجلّ بما هو أهله ، ثم الصلاة على محمد عبدِه ورسوله خاصةً ، وعلى جميع أنبيائه عامة ، و بعد .

عصمنا الله و إياك من الحيرة ، ولا حمّلنا ما لا طاقة لنا به ، وقيّض لنا من جميل عونه دليلاً هادياً إلى طاعته ، ووهبنا من توفيقه أدباً صارفاً عن معاصيه ، ولا وَكَلنا إلى ضعف عزائمنا وخَوَر قُوانا ووهاء بِنيتنا وتلدّد آرابنا وسوء اُختيارنا وقلّة تمييزنا وفساد أهوائنا ؛ فإن كتابك وردنى من مدينة المريّة إلى مسكني بحضرة شاطِبةَ تذكُر من حسن حالك ما يسرّنى . وحمدت الله عز وجل عليه واُستدمته لك واستزدته فيك . ثم لم ألبث أن اطلع عليّ شخصُك وقصدتنى بنفسك ، على بعد الشُّقة وتنائى الديار و شَحَط المزار وطول المسافة وغَوْل الطريق ، وفى دون هذا ما سلّى المشتاق ونسَّى الذاكر ، إلا من تمسّك بحبل الوفاء مثلك ، ورعى سالف الأذمّة ووكيد المودات وحق النَّشأة ومحبة الصبي وكانت مودته لله تعالى . ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون . وكانت معانيك فى كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك ، ثم كشفت إلىّ بإقبالك غرضَك وأطلعتنى على مذهبك ، سجيةً لم تزل علينا من مشاركتك لى فى حلوك ومرك وسرك وجهرك ، يحدوك الودّ الصحيح الذى أنا لك على أضعافه ، لا أبتغى جزاء غير مقابلته بمثله . وفى ذلك أقول مخاطبا لعبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر رحمه الله فى كلمة لى طويلة وكان لى صديقاً :

أودّك وُدًّا ليس فيه غضاضةٌ ... و بعضُ مودّات الرجال سَرابُ
وأمحضتك النُّصح الصريح وفى الحَشى ... لودِّك نقشٌ ظاهرٌ وكتاب

فلو كان فى رُوحى هواكَ أقتلعتُه ومُزِّق بالكفين عنه إهاب
وما لِيَ غيرُ الوُد منك إرادةٌ ولا فى سواه لى إليكَ خطاب
إذا حُزته فالأرض جمعاء والورى هَباءٌ وسكّان البلاد ذُباب

وكلّفتنى أعزّك الله أن أصنِّف لك رسالةً فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا مُتزيّداً ولامفنناً ، لكنْ مُورداً لما يحضُرنى على وجهه و بحسب وقوعه ، حيث أُنتهى حفظى وسَعة باعى فيما أذكره ، فبدرتُ إلي مرغوبك . ولولا الإيجاب لك لما تكلّفته ، فهذا من الفقر ، والأَوْلى بنا مع قِصر أعمارنا ألاّ نصرفها إلا فيما نرجو به رَحْب المُنقلب وحُسن المآب غداً . وإن كان القاضى حمام بن أحمد حدّثنى عن يحيى بن مالك عن عائذ بإسناد يرفعه إلى أبى الدرداء أنه قال : أجمّوا النفوس بشىء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق . ومن أقوال الصالحين من السلف المرضىّ . مَن لم يحسن يتفتّى لم يحسن يتقوّى . وفى بعض الأثر : أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد .

والذى كلّفتنى لا بد فيه من ذكر ما شاهدتْه حضرتى وأدركته عنايتى وحدّثنى به الثقات من أهل زمانه ، فاغتفرْ لى الكناية عن الأسماء فهى إما عورة لا نَستجيز كشفها وإما نُحافظ فى ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً .

وبحسبى أن أُسمى من لا ضرر فى تسميته ولا يَلحقنا والمسمَّي عيبٌ فى ذكره ، إما لاشتهار لا يُغنى عنه الطىّ وتركُ التبيين ، وإما لرضى من المَخبَرُ[1] عنه بظهور خبره وقلةِ إنكار منه لنقله .

وسأورد فى رسالتى هذه أشعاراً قلتُها فيما شاهدته ، فلا تنكر أنت ومن رآها علىّ أنى سالكٌ فيها مسلك حاكى الحديث عن نفسه ، فهذا مذهب المتحلّين بقول الشعر ، وأكثر من ذلك فإنّ إخوانى يجشّمونى القولَ فيما يَعْرِض لهم على طرائقهم ومذاهبهم . وكفانى أنى ذاكر لك ما عَرض لى مما يشاكل ما نحوتُ نحوه وناسبهُ إلىّ .

---

(١) فى الأصل : « المحتقر » .

والتزمت فى كتابى هـذا الوقوفَ عند حدك ، والاقتصارَ على ما رأيتُ أو صحّ عندى بنقل الثقات ، ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلُهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبـار عنهم ، وما مذهبي أن أنضى مطيّة سواى ، ولا أتحلّى بحلى مستعار ، والله المستغفَر والمستعان لا ربّ غيره .

باب

وقسمت رسالتى هذه على ثلاثين باباً ، منها فى أصول الحب عشرة . فأولها هذا الباب ، ثم باب فى علامات الحب ، ثم باب فيه ذكر من أحبّ فى النوم ، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير .

ومنها فى أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً ، وإن كان الحب عَرضاً والعرض لا يحتمل الأعراض ، وصفةً والصفةُ لا تُوصف . فهذا على مجاز اللغة فى إقامة الصفة مُقام الموصوف ، وعلى معنى قولنا : وجودنا عرضاً أقل فى الحقيقة من عرض غيره ، وأكثر وأحسن وأقبح فى إدراكنا لها علمُنا أنها متباينة فى الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة ، إذ لا تقع فيها الكمية ولا التجزى ، لأنها لا تشغل مكاناً وهى : باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ، ثم باب طى السر ، ثم باب الكشف والاذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب من أحب صفة لم يُحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب الضنى ، ثم باب الموت .

ومنها فى الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب ، وهى باب العاذل ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الهجر ، ثم باب البين ، ثم باب السلو .

من هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب المتقدمة الذكر ، وهما باب العاذل : وضده باب الصديق المساعد ؛ باب الهجر وضده

باب الوصل . ومنها أربعة أبواب لاضد لها من معانى الحب ، وهى باب الرقيب ، و باب الواشى ، ولاضدلها إلا ارتفاعهما . وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفع الأول ، و إن كان المتكلمون قد اختلفوا فى ذلك . ولولا خوفنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصيناه .

و باب البين وضده تصاقب الديار ؛ وليس التصاقب من معاني الحب التى نتكلم فيها . و باب السلو وضده الحب بعينه ؛ إذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه .

ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة ، وهما : باب الكلام فى قبح المعصية ، و باب فى فضل التعفف . ليكون خاتمةَ إيرادنا وآخرَ كلامنا الحضُّ على طاعة الله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فذلك مُفترضٌ على كل مؤمن . لكنا خالفنا فى نَسق بعض هذه الأبواب هذه الرُّتبة المقسمة فى دَرج هذا الباب الذى هو أول أبواب الرسالة ، فجعلناها على مباديها إلى منتهاها واستحقاقها فى التقدم والدرجات والوجود ، ومن أول مراتبها إلى آخرها ، وجعلنا الضد إلى جنب ضده . فاُختلف المساق فى أبواب يسيرة ، والله المستعان .

وهَيْئتُها فى الإيراد أولُها هـذا الباب الذى نحن فيه وفيه صدر الرسالة وتقسيم الأبواب والكلام فى باب ماهية الحب ، ثم باب علامات الحب ، ثم باب من أحب بالوصف ، ثم باب من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب من لا يحب إلا مع المطاولة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير ، ثم باب طى السر ، ثم باب إذاعته ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب العاذل ، ثم باب المساعد من الإخوان ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الوصل ، ثم باب الهجر ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب البين ، ثم باب القنوع ، ثم باب الضنى ، ثم باب السلو ، ثم باب الموت ، ثم باب قبح المعصية ، ثم باب التعفف .

الكلام فى ماهية الحب

الحب — أعزك الله — أوله هَزل وآخره جِد . دقّت معانيه لجلالتها عن أن تُوصف ، فلا تُدرك حقيقتها إلا بالمعاناة . وليس بمُنكَر فى الديانة ولا بمحظور فى الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل . وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير ، منهم بأندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدَعجاء ، والحَكَم بن هشام ، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفهُ بطروب أُم عبد الله أبنه أشهرُ من الشمس ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف مَعلوم ، والحكم المستنصر وأُفتتانهُ بصبح أم هاشم المؤيّد بالله رضى الله عنه وعن جميعهم وأُمتناعُه عن التعرّض للولد من غيرها . ومثل هذا كثير . ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة — وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيسه الحزمُ وإحياء الدين ، وإنما هو شىء كانوا ينفردون به فى قُصورهم مع عيالهم فلا ينبغى الإخبار به عنهم — لأوردتُ من أخبارهم فى هذا الشأن غيرَ قليل .

وأما كِبار رجالهم ودعائم دولتهم فأكثر من أن يُحصوا ، وأحدثُ ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المُظَفَّر بن عبد الملك بن أبى عامر بواحد ، بنت رجل من الجبائين حتى حمله حُبُّها أن يتزوجها ، وهى التى خَلف عليها بعد فناء العامر بن الوزير عبد الله بن مَسلمة ، ثُم تزوجها بعد قتله رجلٌ من رؤساء البربر .

ومما يشبه هذا أن أبا العيش بن مَيمون القُرشى الحسينى أخبرنى أن نزار بن معدَ صاحب مصر لم ير أبنه منصور بن نزار ، الذى ولى الملك بعده وأدعى الإلهية إلاَّ بعد مدة من مولده ، مساعدةً لجارية كان يُحبها حباً شديداً ، هذا ولم يكن له ذَكَر ولا من يرث ملكه ويحيى ذكره سواه .

ومن الصالحين والفقهاء فى الدهور الماضية والأزمان القديمة مَن قد أستغنى بأشعارهم عن ذكرهم . وقد ورد من خبر عُبيد الله بن عُتبة بن مسعود وشعره مافيه

الـكفاية . وهو أحد فقهاء المدينة السبعة . وقد جاء من فُتيا ابن عبّاس رضى الله عنه ما لا يحتاج معه إلى غيره حين يقول : هذا قتيل الهوى لا عَقْل ولا قود .

وقد اختلف الناس فى ماهيته وقالوا وأطالوا ، والذى أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هـذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة . الأرواح أُكَر مقسومة لـكنْ على سبيل مناسبة قواها فى مقرِّ عالَمها العلوى ومجاورتها فى هيئة تركيبها .

وقد علمنا أن سر التمازج والتباين فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال . والشكل دأباً يستدعى شكله ، والمِثْل إلى مِثْله ساكن ، وللمُجانسة عملٌ محسوس وتأثير مشاهد ، والتنافر فى الأضداد والموافقة فى الأنداد ، والنزاع فيما تَشابه موجود فيما بيننا فـكيف بالنفس ، وعالَمهـا العالَم الصافى الخفيف . وجوهرها الجوهر الصعّاد المعتدل ، وسِنْخها المهيأ لقَبول الاتفاق والمَيل والتّوق والانحراف والشّهوة والنفار . كل ذلك معلوم بالفطرة[1] فى أحوال تصرُّف الانسان[2] ، فيسكن إليها ، والله عزّ وجل يقول : (هُو الَّذى خَلَقكم من نَفْسٍ وَاحدةٍ وَخَلَق منهـا زَوْجَها لِيَسْـكُنَ إليها) فجعل علّة السكون أنها منه . ولو كان علةُ الحب حُسن الصورة الجسديّة لوجب ألاّ يُستحسن الأنقصُ من الصورة . ونحن نجد كثيرا ممن يُؤثر الأدنى ويَعلم فضلَ غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه . ولو كان للمُوافقة فى الأخلاق لمَا أحب المرء من لا يساعده ولا يُوافقه . فعلِمْنا أنه شىء فى ذات النفس وربما كانت المَحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تفنى بفناء سببها . فمن ودّك لأمر ولّى مع انقضائه . وفى ذلك أقول :

وِدادى لك الباقى على حَسْب كَونه	تناهَى فلم يَنقُص بشىء ولم يَزِدْ
وليست له غيرُ الإرادةِ علّة	ولا سَبب حاشاه يعلمه أَحَد

---

(١) فى الأصل : « بالحضرة » .

(٢) ظاهر أن فى الـكلام هنا نقصا مؤداه : « وزوجه »

إذا ما وجدنا الشيء علّة نفسه فذاك وُجودٌ ليس يَفني على الأبد
وإمّا وجدناه لشيء خِلافه فإعدامُه في عُدْمنا ما له وُجِد[1]

ومما يؤكّد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضُروب . فأفضلها محبّة المتحابّين في الله عز وجل ؛ إما لاجتهاد في العمل ، وإما لاتفاق في أصل النِّحلة والمذاهب ، وإما لفضل عِلْمٍ يُمنحه الإنسان .

ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه ، ومحبة الطمع في جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس ، فكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها وزائدة بزيادتها وناقصة بنقصانها ، متأكدة بدنوها فاترة ببعدها . حاشَى محبة العشق الصحيح المُمكن من النفس فهي التي لا فناء لها إلا بالموت . وإنك لتجد الانسان السالي برغمه[2] . وذا السِّن المتناهية ، إذا ذكّرته تذكر وارتاح وصبا واعتاده الطرب واهتاج له الحنين .

ولا يعرض في شيء من هذه الأجناس المذكورة ، من شُغل البال والخبل والوسواس وتبدّل الغرائز المركبة وأستحالة السجايا المطبوعة والنُّحول[3] والزفير وسائر دلائل الشجا ما يعرض في العشق ، فصحّ بذلك أنه أستحسان رُوحاني وأمتزاج نَفساني . فإن قال قائل : لو كان هذا كذلك لكانت المحبّة بينهما مستوية، إذ الجزآن مشتركان في الاتصال وحظّهما واحد . فالجواب عن ذلك أن نقول : هذه لَعمري معارضة صحيحة ، ولكنّ نفس الذي لا يحب من يُحبه مكتنفةُ الجهات ببعض الأعراض الساترة والحُجب المحيطة بها من الطبائع

(١) في الاصل : « باعدامه في عدمنا ما له وحد » .
(٢) في الاصل : « بزعمه » .
(٣) في الاصل : « التحول » .

الأرضية فلم تُحس بالجزء الذى كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هى ، ولو تخلّصت لاستويا فى الاتصال والمحبة . ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها فى المجاورة ، طالبةٌ له قاصدة إليه باحثة عنه مشتهية لملاقاته ، جاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس والحديد ، قوة جوهر المغنطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكمها ولا من تصفيتها أن تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها ، كما أن قوة الحديد لشدتها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه ، إذ الحركة أبداً إنما تكون من الأقوى ، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابسٍ ، تطلب ما يشبهها وتنقطع إليه وتنهض نحوه بالطبع والضرورة وبالاختيار والتعمّد . وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذب إذ لم يبلغ من قوته أيضا مغالبةَ المُمسك له مما هو أقوى منه . ومتى كثرت أجزاء الحديد اُشتغل بعضها ببعض واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها ، فمتى عظُم جِرم المغناطيس ووازت قُواه جميعَ قُوى جِرم الحديد عادت إلى طبعها المعهود . وكالنار فى الحجر لا تبرز على قوة الحجر (١) فى الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلا بعد القدح ومجاورة الجِزمين بضغطهما واُصطكاكهما ، وإلا فهى كامنة فى حَجرها لاتبدو ولا تظهر .

ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لا تجد اُثنين يتحابّان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق الصفات الطبيعية لا بد فى هــذا وإن قل ، وكلما كثرت الأشباه زادت المُجانسة وتأكّدت المودة . فانظر هذا تراه عِياناً ، وقولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكّده : « الأرواح جنود مجندة ما تَعارف منها اُئتلف وما تناكر منها اُختلف » ، وقولٌ مرويّ عن أحد الصالحين : أرواح المؤمنين تتعارف . ولهذا ما اُغتم بقراط حين وُصف له رجل من أهل النقصان يُحبه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ما أحبنى إلا وقد وافقتُه فى بعض أخلاقه .

(١) في الأصل : « لاتبرز على قوة النار » .

وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظلماً ، فلم يزل يحتجّ عن نفسه حتى أظهر براءته ، وعلم الملك أنه له ظالم ، فقال له وزيره الذى كان يتولى إيصال كلامه إليه : أيها الملك ، قد استبان لك أنه برىء فمالك وله ؟ فقال الملك : لعمرى مالى إليه سبيل ، غير أنى أجد لنفسى استثقالا لا أدرى ما هو . فأدّى ذلك إلى أفلاطون . قال : فاحتجت أن أفتش فى نفسى وأخلاقى [أجد] شيئاً أقابل به نفسه وأخلاقه مما يشبهها ، فنظرت فى أخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم ، فميزت هذا الطبع فىّ ، فما هو إلا أن حركته[1] هذه الموافقة وقابلت نفسه بهذا الطبع الذى بنفسى[2] فأمر بإطلاقى ، وقال لوزيره : قد انحل كل ما أجد فى نفسى له .

وأما العلة التى توقع الحب أبداً فى أكثر الأمر على الصورة الحسنة ، فالظاهر ان النفس حسنة تولع بكل شىء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة ، فهى إذا رأت بعضها تثبتت فيه ، فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية ، وإن لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هو الشهوة .

وإن للصور لتوصيلا عجيباً بين أجزاء النفوس النائية . وقرأت فى السفر الأول من التوراة أن النبى يعقوب عليه السلام أيام رَعيه غنماً لابن خاله مهراً لابنته شارَطه على المشاركة فى إنسالها ، فكل بَهيم ليعقوب وكل أغرّ للابان ، فكان يعقوب عليه السلام يعمد إلى قضبان الشجر يسلخ نصفا ويترك نصفاً بحاله ، ثم يلقى الجميع فى الماء الذى تَرده الغنم ، ويتعمد إرسال الطروقة فى ذلك الوقت فلا تلد إلا نصفين ، نصفاً بُهماً ونصفاً غُرًّا .

وذكر عن بعض القافة أنه أُتى بابن أسود لأبيضَين ، فنظر إلى أعلامه فرآه

---

(١) فى الاصل : « حركت » .

(٢) فى الاصل : « بنفسه » .

لهما غير شك . فرغب أن يُوقَف على الموضع الذى اجتمعا عليه . فأدخل البيتَ الذى كان فيه مَضْجعهما ، فرأى فيما يوازى نظر المرأة صورةَ أسود فى الحائط ، فقال لأبيه : مِن قِبل هذه الصورة أُتيتَ في ابنك .

وكثيراً ما يصرف شعراء أهل الكلام هذا المعنى فى أشعارهم ، فيخاطبون المرئىّ فى الظاهر خطابَ المعقول الباطن ، وهو المستفيض فى شعر النظّام إبراهيم ابن سيّار وغيره مِن المتكلمين ، وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ما علة النّصر فى الأعداء تَعرفها ... وعلة الفرّ منهم أن يَفرُّونا
إلا نِزاعُ نُفوس النـاس قاطبةً ... إليك يا لؤلؤاً فى النـاس مكنونا
مَن كنتَ قُدّامه لا ينثنى أبداً ... فهم إلى نُورك الصعّاد يَعشُونا
وَمن تـكُن خلفَه فالنفسُ تَصرفه ... إليك طوعاً فهم دأباً يَـكُرونا

ومن ذلك أقول :

أمِن عالم الأملاك أنت أم اُنسىٌّ ... أبِنْ لى فقدأزْرَى بتمييزِىَ العِىُّ
أرى هيئةً إنسيةً غــيرَ أنه ... إذا أُعمِل التفـكيرُ فالجرْم عُلوىّ
تبارك مَن سوّى مذاهبَ خلْقه ... على أنك النُّور الأنيق الطبيعيّ
ولا شك عندى أنك الروح ساقَه ... إلينا مثالٌ فى النفوس اتصالىّ
عَدِمنا دليلاً فى حُدوثك شاهداً ... نَقيس عليه غـيرَ أنك مَرْئىّ
ولولا وُقوع العين فى الـكون لم نَقُل ... سوى أنك العقل الرفيعُ الحقيقىّ

وكان بعض أصحابنا يُسمِّى قصيدةً لى « الادراك المتوهم » منها :

ترى كل ضـدّ به قائماً ... فـكيف تَحُد اُختلافَ المعانى
فيأيها الجسم لا ذا جِهاتٍ ... ويا عَرضاً ثابتاً غـيرَ فان
نَقضت علينا وُجوه الـكلام ... فما (١) هو مُذ لُحتَ بالمُستبانِ

وهذا بعينه موجود فى البغضة ، ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنًى ، ولا علة ،

---

(١) فى الأصل : « بما » .

ويشتقل بعضُهما بعضا بلا سبب . والحب أعزك الله داء عَيَاء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ، ومقامٌ مستلذٌ ، وعلة مشتهاة لا يودّ سليمُها البرء ، ولا يتمنّى عليلُها الإفاقة . يُزيّن للمرء ما كان يأنف منه ، ويسهّل عليه ما كان يصعُب عنده حتى يُحيل الطبائع المركبة والجِبلة المخلوقة . وسيأتى كل ذلك ملخصاً فى بابه إن شاء الله .

خبر :

ولقد علمتُ فتى من بعض معارفى قد وَحِل فى الحب وتورّط فى حبائله ، وأضر به الوجد ، وأنضجه الدنف ، وما كانت نفسُه تطيب بالدعاء إلى الله عزّ وجل فى كشف ما به ولا ينطلق به لسانُه ، وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكن ممن يُحب ، على عظيم بلائه وطويل همه ، فما الظنّ بسقيمٍ لا يريد فقْد سقمه . ولقد جالستُه يوماً فرأيت من إكبابه وسوء حاله وإطراقه ما ساءنى فقلت له فى بعض قولى : فرّج الله عنك . فلقد رأيتُ أثر الكراهية فى وجهه . وفى مثله أقول من كلمة طويلة :

وأستلذّ بلائى فيك يا أملى ولستُ عنك مدَى الأيام أنصرفُ
إن قيل لى تتسلى عن مودّته فما جوابىَ إلا اللامُ والألف

خبر :

وهذه الصفات مخالفة لما أخبرنى به عن نفسه أبو بكر محمد بن قاسم بن محمد القرشىّ . المعروف بالشلشى ، من ولد الإمام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ، أنه لم يُحب أحداً قط ، ولا أسِف على إلف بانَ منه ، ولا تجاوز حد الصُّحبة والألفة إلى حدّ الحُب والعِشق منذ خُلق .

باب علامات الحب

وللحُب علامات يقفوها الفَطِن ، ويهتدى إليها الذكىّ . فأولها إدمان النظر ،

والعينُ باب النفس الشارع ، وهى المَنقبة عن سرائرها ، والمعبِّرة لضمائرها . والمُعربة عن بواطنها . فترى الناظر لا يطرف ، يتنقّل بتنقل المحبوب وينزوى بانزوائه ، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

فليس لعينى عند غيرك موقفٌ كأنك مايحكون من حَجَر البَهْتِ
أُصرِّفها حيثُ انصرفْت وكيفما تقلبتَ كالمنعوت فى النَّحو والنَعت

ومنها الإقبالُ بالحديث ، فما يكاد يُقبل على سوى محبوبه ولو تعمد [غير] ذلك ، وإن التكلف ليستبين لمن يرمُقه فيه ، والإنصات لحديثه إذا حدثَ ، واستغرابُ كل ما يأتى به وكأنه عينُ المحال وخرق العادات ، وتصديقُه وإن كذب ، وموافقتُه وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعُه كيف سلك وأىَّ وجه من وجوه القول تناول .

ومنها الإسراعُ بالسيرِ نحو المكان الذي يكون فيه ، والتعمّد للقعود بقُربه والدنو منه ، واطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه ، والاستهانةُ بكل خطب جليل داعٍ إلى مفارقته ، والتباطؤ فى الشىء عند القيام عنه . وفى ذلك أقول شعراً :

وإذا قمتُ عنك لم أمش إلاّ مشىَ عانٍ يُقادُ فى نحو الفَناء
فى مَجيئى إليك أحتثّ كالبد ر إذا كان قاطعاً للسماء
وقِيامى إن قمتَ كالأنجم العا ليةِ الثابتات فى الإبطاء

ومنها بَهْت يقع وروعةٌ تبدو على المحب عند رؤية من يُحب فجأة وطلوعه بغتة .

ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يُشبه محبوبَه أو عند سماع اسمه فجأة . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

إذا ما رأتْ عيناى لابسَ حُمرةٍ تقطَّع قلبى حسرة وتفطّرا
غدا لدماء النّاس باللّحظ سافكاً وضَرّج منها ثوبَه فتعصفرا

ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبلَ

ذلك ، كأنه هو الموهوب له والمسعىّ فى حظه ، كل ذلك ليُبدى محاسنه ويُرغّب فى نفسه . فكم بخيل جاد ، وقطوب تطلّق ، وجبان تشجّع ، وغليظ الطبع تطرب ، وجاهل تأدب ، وتفِل(١) تزيّن ، وفقير تجمل . وذى سن تفتى ، وناسك تفتّك ، ومصون تبذّل(٢) .

وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه وتوقد شعله واستطارة لهبه . فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سِراراً ، والإعراض عن كل ما حضر إلا عن المحبوب جهاراً . ولى أبيات جمعت فيها كثيراً من هذه العلامات ، منها :

أهوَى الحديثَ إذا ما كان يُذكَرُ لى ... فيه ويَعْبَق لى عن عَنبرٍ أرِجِ
إن قال لم أستمع ممن يُجالسني ... إلى سَوى لفظة المستطرف الغَنِج
ولو يكون أمير المؤمنين معي ... ما كنتُ من أجله عنه بمُنعرج
فإن أقُم عنه مُضطرًّا فإنىَ لا ... أزال مُلتفتاً والمشىُ مشىُ وجى
عيناى فيه وجسمى عنه مرتحلٌ ... مثل ارتقاب الغريق البَرّ فى اللُّجج
أغصّ بالماء إن أذكُر تباعدَه ... كمن تثاءب وَسْط النقع والوَهَج
وإن تقُل مُمكنٌ قصْد السماء أقل ... نعم وإنى لأدرى موضع الدّرج

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكُل ذى بَصر الأُنبساطُ الكثير الزائد ، والتضايقُ فى المكان الواسع ، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما ، وكثرة الغمز الخفى ، والميل بالاتكاء ، والتعمد لمسّ اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة . وشرب فضلة ما أبقي المحبوب فى الإناء ، وتحرى المكان الذى يقابله فيه .

ومنها علامات متضادة ، وهى على قدر الدواعى والعوارض الباعثة والأسباب المحركة والخواطر المهيجة ، والأضداد أنداد ، والأشياء إذا أفرطت

(١) النفل ، كفرح : المتغير الريح . (٢) فى الأصل : « تمسك » .

فى غايات تضادها . ووقفت فى أنتهاء حدود اختلافها تشابهت ، قدرةً من الله عز وجل تضلّ فيها الأوهام ، فهذا الثلج إذا أُدمن حبسه فى اليد فعل فعل النار ، ونجد الفرَح إذا أفرط قتل ، والغم إذا أفرط قتل ، وَالضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين . وهذا فى العالم كثير ، فنجد المحبين إذا تكافيا فى المحبة وتأكدت بينهما تأكداً شديداً أكثر بهما جدُّهما بغير معنى ، وتضادُّهما فى القول تعمداً ، وخروجُ بعضهما على بعض فى كل يسير من الأمور ، وتتبع كلٌّ منهما لفظةً تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها ، كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما فى صاحبه . والفرق بين هذا و بين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومُخارجة التشاجر سرعةُ الرضى . فإنك بينما ترى المُحبين قد بلغا الغاية من الأختلاف الذى لا يقدر يصلُح عند الساكن النفس السالم من الأحقاد فى الزمن الطويل ولا ينجبر عند الحَقودَ أبداً ، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصُّحبة ، وأهدرت المعاتبة ، وَسقط الخلاف ، وَانصرفا فى ذلك الحين بعينه إلى المُضاحكة والمداعبة ، هكذا فى الوقت الواحد مراراً . و إذا رأيت هذا من اثنين فلا يُخالجك شك ولا يدخلنّك ريبٌ البتةَ ولاَ تمارَ فى أن بينهما سرًّا من الحب دفينا ، واقْطع فيه قَطْع من لا يصرفه عنه صارف . ودونكها تجربةً صحيحةً وخِبرةً صادقة . هذا لا يكون إلا عن تكلفٍ فى المودة وائتلاف صحيح ، وقد رأيتُه كثيراً .

ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يُحب ، و يستلذ الكلام فى أخباره ويجعلها هِجّيراه ، ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها ، ولا ينهنهه عن ذلك تخوّفُ أن يفطن السامع و يفهم الحاضر ، وحُبك الشيء يُعمى ويُصم . فلو أمكن المُحبَّ ألاّ يكون حديثٌ في مكان يكون فيه إلا ذُكر من يُحبه لما تعدّاه . وَيعرض للصادق المودة أن يبتدئ فى الطعام وهو له مُشتهٍ فما هو إلا وقتٌ ، ما تهتاج له مِن ذِكْر

من يُحب صار الطعام غُصة فى الحلق وشجى فى المرىء . وهكذا فى الماء وفى الحديث فإنه يفاتحكه متبهجاً فتعرض له خَطرة من خطرات الفكر فيمن يُحب فتستبين الحِوالة فى منطقة والتقصير فى حديثه ، وآية ذلك الوُجومُ والإطراق وشدّة الانفلاق ، فبينما هو طَلْق الوجه خفيفُ الحركات صار مُنطبقاً متثاقلا حائرَ النفس جامدَ الحركة يبرم من الكلمة وَيضجر من السؤال .

ومن علاماته حُبُّ الوُحدة والأُنس بالانفراد ، ونُحول الجسم دون حدٍّ يكون فيه ولا وجع مانع من التقلب والحركة والمشي . دليل لا يكذِب ونُخبر لا يخون عن كلمة فى النفس كامنة .

والسهرُ من أعراض المُحبين . وقد أكثر الشعراء فى وصفه وحكوا أنهم رُعاة الكواكب وواصفُوا طول الليل . وفى ذلك أقول وأذكر كتمان السرْ وأنه يتوسّم بالعلامات :

تعلّمتِ السحائبُ من شُؤونى	فعمّت بالحَيا السّكْبِ الهَتُونِ
وهذا الليلُ فيكَ غدا رَفيقى	بذلك أم على سَهرى مُعينى
فإن لم ينقَضِ الإظلام . . . (١)	ألاَ ما أطبقت نوماً جُفونى
فليس إلى النهار لنا سبيلٌ	وسُهد زائد فى كل حين
كأنّ نُجومه والغَيم يُخفى	سناها عن مُلاحظة العُيون
ضَميرى فى وِدادك يا مُنايا	فليس يَبين إلا بالظّنون

وفى مثل ذلك قطعةٌ منها :

أَرعى النُّجوم كأنّنى كُلِّفت أن	أَرعى جميعَ ثُبوتها والخُنَّسِ
فكأنها والليلُ نيران الجَوى	قد أُضرمت فى فِكْرتى من حِنْدِس
وكأننى أمسيتُ حارسَ روضةٍ	خَضراء وُشِّع نَبْتُها بالنَّرجس

---

(١) بياض بالأصل .

لو عاش بَطْلَيموس أيقن أنني | أقوى الورى في رَصْد جَرْي الكُنَّس

والشيء قد يذكر لما يُوجبه : وقع لى فى هذه لأبيات تشبيه شيئين بشيئين فى بيت واحد . وهو البيت الذي أوله « فكأنها والليل » وهذا مستغرب فى الشعر . ولى ما هو أكملُ منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشياء فى بيت واحد ، وتشبيه أربعة أشياء فى بيت واحد . وكلاهما فى هذه القطعة التى أُوردها ، وهى :

مَشُوقٌ مُعَنًّى ما ينام مُسهَّد | بخمْر التَّجنّى ما يَزال يُعربدُ

ففى ساعةٍ يُبدى إليك عجَائباً | يُمِرّ ويَستحلى ويُدْنى ويُبعد

كأنَّ النَّوى والعَتْب والهَجْر والرِّضى | قِرانٌ وأنداد ونحس وأسعد

رَثى لغرامى بعد طول تمنّع | وأصبحتُ محسوداً وقد كنتُ أحسُد

نَعِمْنا على نُور من الرَّوض زاهر | سقتْه الغوادى فهو يُثنى ويَحمد

كأنّ الحَيا والمُزن والرَّوض عاطراً | دموعٌ وأجفان وخدٌّ مورّد

ولا ينكر علىّ مُنكر قولى « قران » فأهل المعرفة بالكواكب يسمّون التقاء كوكبين فى درجة واحدة قراناً .

ولى أيضاً ما هو أتم من هذا ، وهو تشبيه خمسة أشياء فى بيت واحد فى هذه القطعة ، وهى :

خلوتُ بها والرَّاحُ ثالثةٌ لها | وجُنح ظَلام اللَّيل قد مُدَّ ما انبلج

فتاةٌ عدمتُ العيشَ إلا بقُربها | فهل فى ابتغاء العيش ويحك من حَرَج

كأنى وَهِى والكاسَ والخمرَ والدُّجى | ثرًى وحيًا والدُّرُّ والتبر والسَّبَج

فهذا أمر لا مزيدَ فيه ولا يقدر أحدٌ على أكثرَ منه ، إذ لا يحتمل العَروضُ ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك . .

ويعرض للمُحبين القلقُ عند أحد أمرين :

أحدهما عند رجائه لقاءَ من يُحب فيعرض عند ذلك حائل .

صبر :

وإنى لأعلم بعضَ مَن كان محبو بُه يَعده الزيارة ، فما كنتُ أراه إلا جائياً وذاهباً لا يقرّ به القرارُ ولا يثبت فى مكان واحد ، مقبلاً مدبراً قد استخفه السرور بعد ركانة ، وأشاطه بعد رزانة . ولى فى معنى انتظار الزيارة :

أقمتُ إلى أن جاءنى الليلُ راجيا	لِقاءَكَ يا سُؤلى و يا غاية الأمل
فأيأسنى الإظلامُ عنك ولم أكن	لأيأس يوماً إن بَدا الليلُ يتَّصِل
وعندى دليلٌ ليس يكذب خُبْره	بأمثاله فى مُشكل الأمر يُستدلّ
لأنك لو رُمْتَ الزيارة لم يكن	ظلامٌ ودام النُّور فينا ولم يَزُل

والثانى عند حادث يحدُث بينهما من عتاب لا تُدرى حقيقته إلا بالوصف . فعند ذلك يشتدّ القلق حتى توقف على الجليلة ، فإما أن يَذهب تحمُّله إن رجا العفو ، و إما أن يصير القلق حزناً وأسفا إن تخوف الهجر .

و يعرض للمُحب الاُستكانةُ لجفاء المحبوب عليه . وسيأتى مفسَّراً فى بابه إن شاء الله تعالى .

ومن أعراضه الجزع الشديد والُحمرة المقطعة تغلب عند ما يري من إعراض محبو به عنه ونِفاره منـه ، وآية ذلك الزفير وقلة الحركة والتأوه وتنفس الصُّعداء . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

جميلُ الصبر مَسْجون ودمع العين مَسْفوح(١)

ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبو به وقرابته وخاصّته حتى يكونوا أحظَى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته .

والبكاء من علامات المحب ولـكن يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع هامِل الشؤون تُجيبه عينه وتحضُره عبرته إذا شاء ، ومنهم جَمود العين عـديم الدّمع ، وأنا منهم . وكان الأصل فى ذلك إدمانى أكل الـكُندر لخفقان القلب ، وكان

(١) فى الاصل : « ودموع العين سارحة » .

عَرَض لى فى الصبا ، فإني لاصاب بالمصيبة الفادحة فأجد قلبي يتفطّر و يتقطّع وأُحِس فى قلبي غُصّة أمرّ من العلقم تَحول بينى و بين توفيـة الـكلام حقّ مخارجه ، وتـكاد تشوقنى النفس أحياناً ولا تجيب عيني البتة إلا فى الندرة بالشيء اليسير من الدمع .

خبر :

ولقد أذكرنى هذا الفصل يوما : ودعت أنا وأبو بكر محمد بن إسحاق صاحبي أبا عامر محمد بن عامر صديقنا رحمه الله فى سفرته إلى المشرق التى لم نَرَه بعدها ، فجعل أبو بكر يبكى عند وداعه ويُنشد متمثّلا بهذا البيت :

ألا إن عيناً لم تَجُد يومَ واسط   عليك بباقى دَمعها لجَمودُ

وهو فى رثاء يزيد بن عمر بن هُبيرة رحمـه الله . ونحن وقوف على ساحل البحر بمالَقة ، وجعلت أنا أكثر التفجّع والأسف ولا تساعـدنى عينى ، فقلت مُجيباً لأبى بكر :

وانّ امرأ لم يفنِ حُسن أُصطباره   عليـــك وقد فارَقتَه لجليد

وفى المذهب الذى عليه الناس أقول من قصيدة قلتُها قبل بلوغ الُحلم ، أولها :

دليل الأسى نارٌ على القلب تلفَحُ   ودمعٌ على الخدّين يَحْمى ويَسفح

إذا كَتم المشغوفُ سرّ ضُلوعه   فإن دموع العين تُبدى وتَفضح

إذا ما جُفون العين سالت شؤونها   ففى القلب داء للغرام مُبرِّح

ويعرض فى الُحب سوء الظن وأُتهام كل كلمة من أحـدهما وتوجيهها إلى غير وجهها ، وهذا أصل العتاب بين المحبين . و إنى لأعلم من كان أحسن الناس ظناً وأوسعهم نفساً وأكثرهم صبراً وأشدهم احتمالا وأرحبهم صدراً ، ثم لا يحتمل ممن يُحب شيئاً ولا يقع له معه أيسر مخالفة حتى يبدى من التَّعديد فنوناً ومن سوء الظن وجوها . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

أُسيء ظَنِّى بكُل محتقِر   تأتى به والحقيرُ من حَقَرْ

كى لا يُرَى أَصل هِجْرة وقِلًى فالنارُ فى بَدْء أمرها شَرَر
وأصْلُ عُظْم الأمور أهونُها ومِن صغير النَّوى ترى الشَّجر

وترى المُحب ، إذا لم يَثِق ببقاء[1] طوية محبو به له ، كثيرَ التحفظ مما لم يكن يتحفظ [منه] قبل ذلك ، مثقفاً لـكلامه ، مزينا لحركاته ومرامى طرفه ، ولاسيما إن دُهى بمتجنٍّ و بُلى بمُعربد .

ومن آياته مراعاةُ المُحب لمحبو به ، وحفظُه لـكُل ما يقع منه ، و بحثه عن أخباره حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جليلة ، وتتبعه لحركاته . ولعمرى لقـد ترَى البليد بصيراً فى هذه الحالة ذ كيا ، والغافلَ فطناً .

خبر :

ولقد كنتُ يوماً بالمرية قاعداً فى دكّان إسماعيل بن يونس الطبيب الاسرائيلى ، وكان بصيراً بالفراسة مُحسناً لها ، وكُنّا فى لمّة ، فقال له مجاهد بن الحصين القيسى : ما تقول فى هذا ؟ وأشار إلى رجل مُنتبذ عنّا ناحيةً اسمه حاتم و يكنى أبا البقاء ، فنظر إليه ساعةً يسيرة ثم قال : هو رجل عاشق . فقال له : صدقت ، فمن أين قلت هذا ؟ قال : لِبُهْت مُفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته ، فعلمت أنه عاشق وليس بمُريب .

باب من أحب في النوم

ولا بُد لكل حُب من سبب يكون له أصلاً ، وأنا مبتدىء بأبعد ما يمكن أن يكون من أسـبابه ليجرى الـكلامُ على نسق ، أو أن يُبتدأ أبدا بالسهل والأهون . فمن أسبابه شىء لولا أنى شاهدته لم أذكره لغرابته .

خبر :

وذلك أنى دخلتُ يوماً على أبى السرىّ عمّار بن زياد صاحبنا مولى المؤيد

(١) فى الأصل : « بيقاء » .

ووجدته مفكرا مهتماً فسألته عما به ، فتمنع ساعةً ثم قال : لى أعجوبة ما سمعت قط . قلت : وما ذاك ؟ قال : رأيت فى نومى الليلةَ جاريةً فاستيقظتُ وقد ذهب قلبى فيها وهِمْت بها وإنى لفى أصعب حال من حبها ، ولقد بقى أياماً كثيرة يزيد على الشهر مغموماً مهموماً لا يهنئه شىء وجداً ، إلى أن عذلته وقلت له : من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة ، وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجد . هل تعلم مَن هى ؟ قال : لا والله . قلت : إنك لقَيْل الرأى مُصاب البصيرة إذ تحب مَن لم تره قط ولا خُلق ولا هو فى الدنيا ، ولو عشقتَ صورة من صور الحمام لكنتَ عندى أعذر . فما زِلتُ به حتى سلا وما كاد .

وهذا عندى من حديث النفس وأضغاثها ، وداخلٌ فى باب التمنى وتخيل الفكر . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

يا ليتَ شعرىَ من كانت وكيف سَرَتْ ... أطلْعة الشمس كانت أم هى القمرُ
أظنه العقلُ أبداه تدبُّره ... أو صورة الروح أبدتها لىَ الفِكر
أو صورة مثّلت فى النفس من أملى ... فقد تخيّل فى إدراكها البصر
أو لم يكن كُل هذا فهى حادثةٌ ... أتى بها سبباً فى حَتْفِىَ القَدَر

باب من أحب بالوصف

ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المُعاينة ، وهذا أمر يُترقَّى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة والهم والوجد والسهر على غير الأبصار ، فإن للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيراً فى النفس ظاهراً .

وأن تسمع نَغمتها من وراء جدار ، فيكون سبباً للحب واشتغال البال .

وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ، ولكنه عندى بُنيان هار على غير أُس ، وذلك أن الذى أفرغ ذهنه فى هوى مَن لم ير لا بُد له إذ يخلو بفكره أن يُمثل لنفسه صورةً يتوهمها وعيناً يُقيمها نُصب ضميره ، لا يتمثّل فى هاجسِه غيرَها ،

قد مال بوهمه نحوها ، فإن وقعت المُعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكّد الأمر أو يبطل بالكلية ، وكلا الوجهين قد عَرض وعُرف ، وأكثر ما يقع هذا فى ربّات القُصور المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، وحُب النساء فى هذا أثبت من حُب الرجال لضعفهن وسُرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن ، وتمكّنه منهن . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ويا مَن لامنى فى حُبّ مَن لم يَره طَرْفِى
لقد أفرطتَ فى وصفك لى فى الحب بالضَّعف
فقُل هل تُعرف الجنَّة يوماً بِسوَى الوَصف

وأقول شعراً فى أُستحسان النَّغمة دون وقوع العين على العيان ، منه :

قد حلّ جيش الغرام سَمْعى وَهْو على مُقلتىّ يبدو

وأقول أيضاً فى مخالفة الحقيقة لظنّ المحبوب عند وقوع الرؤية :

وَصفوُكَ لى حتى إذا أبصرت ما وَصفوا علمتْ بأنه هَذيان
فالطَّبل جِلْد فارغ وطَنِينهُ يرتاع منه ويَفْرَق الإنسان

وفى ضد هذا أقول :

لقد وصفوكَ لى حتى اُلتقينا فصار الظنُّ حقًّا فِى العِيان
فأوصاف الجِنان مُقصِّرات على التَّحقيق عن قدر الجِنان

وإن هذه الأحوال لتحدُث بين الأصدقاء والإخوان ، وعني أُحدث .

خبر :

إنه كان بينى و بين رجل من الأشراف ودّ وكيد وخطاب كثير ، وما تراءينا قط . ثم منح الله لى لقاءه ، فما مرّت إلا أيام قلائل حتى وقعت لنا مُنافرة عظيمة ووحشة شديدة متصلة إلى الآن ، فقلت فى ذلك قطعة ، منها :

أبدلت أشخاصنا كُرهاً وفَرط قلًى كما الصحائف قد يُبدلْن بالنَّسخ

ووقع لى ضدّ هذا مع أبى عامر بن أبى عامر رحمةُ الله عليه ، فإنى كنت له

على كراهة صحيحة وهو لى كذلك ، ولم يرنى ولا رأيته ، وكان أصل ذلك تَنقيلاً يُحمل إليه عنى و إلىّ عنه ، و يؤكده انحراف بين أبو ينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صُحبة السلطان ووجاهة الدنيا ، ثم وفّق الله الاجتماعَ به فصار لى أودّ النـاس وصرتُ له كذلك ، إلى أن حال الموت بيننا . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

أخٌ لىَ كَسَّبنيه اللقاء وأوجـدنى فيه عِلقاً شريفاً
وقد كنتُ أكره منه الجوارَ وما كنتُ أرغبه لى أليفاً
وكان البغيضَ فصار الحبيبَ وكان الثقيلَ فصار الخفيفا
وقد كُنت أدمن عنه الوَجيف فصرتُ أُديم إليه الوَجيفا

وأما أبو شاكر عبد الرحمن بن محمد القبرىّ فـكان لى صديقاً مدةً على غير رؤية ، ثم التقينا فتأكّدت المودة واتصلت وتمادت إلى الآن .

باب من أحب من نظرة واحدة

وكثيراً ما يكون لُصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة . وهو ينقسم قسمين ، فالقسم الواحد مخالف للذى قبل هذا ، وهو أن يعشق المرء صورةً لا يعلم من هى ولا يدرى لها اسما ولا مستقرًّا ، وقد عرض هذا لغير واحد .

خبر :

حدثنى صاحبنا أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق عن ثقة أخبره سَقط عني اسمه ، وأظنه القاضى ابن الحذاء ، أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرّمادىّ كان مجتازاً عند باب العطارين بقُرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمعَ النساء ، فرأى جارية أَخذت بمجامع قلبه وتخلّل حبُّها جميعَ أعضائه ، فَانصرف عن طريق الجامع وجعـل يَتبعها وهى ناهضة نحو القنطرة ، فجازتها إلى الموضع المعروف بالرَّبَض . فلماصارت بين رياض بنى مروان ـ رحمهم الله ـ المبنية على قبورهم فى مقبُرة الربض خَلْف النهر . نَظرت منه مُنفرداً عن الناس لا همّة له غيرها ، فانصرفت إليه فقالت له : مالك تمشي ورائى ؟ فأخبرها بعظيم بليّته بهـا . فقالت له : دَع

عنك هذا ولا تطلُب فضيحتى فلا مطمع لك فِى النِّية ولا إلى ما ترغبه سبيل . فقال : إنى أقنع بالنظر . فقالت : ذلك مُباح لك . فقال لها : يا سيدتى ، أحرة أم مملوكة ؟ قالت : مملوكة . فقال لها : ما أُسمك ؟ قالت : خلوة . قال : ولمن أنت ؟ فقالت له : علمك والله بما فى السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع المحال . فقال لها : ياسيدتى ، وأين أراك بعد هذا ؟ قالت : حيث رأيتنى اليومَ فى مثل تلك الساعة من كل جُمعة . فقالت له : إما أن تَنهض أنت و إما أنهض أنا . فقال لها : انهضى فى حفظ الله . فنهضت نحو القَنطرة ولم يمكنه اتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا . فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة .

قال أبو عمر ، وهو يوسف بن هارون : فو الله لقد لازمت باب العطّارين والرَّبض من ذلك الوقت إلى الآن فما وقعتُ لها على خبر ولا أدرى أسماء لحستْها أم أرض بلعتها ، و إن في قلبى منها منها لأحرّ من الجمر . وهي خلوة التى يتغزل بها فى أشعاره .

ثم وقع بعد ذلك على خَبرها بعد رحيله فى سببها إلى سَرَقسطة فى قصة طويلة . ومثل ذلك كثير . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

عينى جَنت فى فؤادى لوعةَ الفِكَر ... فأُرسل الدمعَ مُقتصًّا من البَصَرِ
فكيف تُبصر فعل الدَّمع مُنتصفاً ... منها بإغراقها فى دَمْعها الدررِ
لم ألقها قبل إبصارى فأعرفَها ... وآخرُ العهد منها ساعةُ النظر

* * *

والقسم الثانى مخالف للباب الذى يأتى بعد هذا الباب إن شاء الله ، وهو أن يعلق المرءُ من نظرة واحدة جارية معروفة الأسم والمكان والمَنشأ ، ولكن التفاضل يقع فى هذا فى سُرعة الفناء و إبطائه ، فمن أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر ، ومُخبر بسرعة السلو ،

وشاهد الظرافة والملل . وهكذا فى جميع الأشـياء أسرعُها نموًّا أسرعها فناء ، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاذاً .

خبر :

إنى لأعلم فتًى من أبناء الـكُتّاب ورأته امرأة سرّية النشأة ، عالية المنصب ، غليظة الحجاب ، وهو مُجتاز ، ورأته فى موضع تَطلَّعَ منـه كان فى منزلهـا ، فعلقته وعَلقها وتهاديا المراسلة زماناً على أرق من حـد السيف ، ولولا أنى لم أقصد فى رسالتى هذه كشفَ الحيل وذكر المـكائد لأوردتُ مما صحّ عندى أشياء تحيّر اللبيب وتَدهش العاقل ، أسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بمَنِّه ، وكفانا .

باب من لا يحب الا مع المطاولة

ومن الناس من لا تصحّ محبته إلا بعـد طول المُخافتة(١) وكثير المُشاهدة ومتمادى الأُنس ، وهذا الذى يوشك أن يدوم ويثبت ولا يَحيك فيه مرُّ الليالى ، فمادَخل عسيراً لم يخرج يسيراً ، وهذا مذهبى . وقد جاء فى الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسدَ آدم ، وهو فخّار ، فهاب وجَزع : أُدخل كرهاً وأُخرج كرهاً . حُدّثناه عن شيوخنا .

ولقد رأيت من أهل هذه الصفة من إن أحسّ من نفسه بابتداء هوى ، أو تَوجّس(٢) مِن أُستحسانه ميلاً إلى بعض الصور أُستعمل الهجر وترك الإلمـام ، لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده ، ويُحال بين العَيْر والنَّزَوان . وهذا يدل على لُصوق الُحب بأكباد أهل هذه الصفة ، وأنه إذا تمكن منهم لم يُحَلَّ أبداً . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

سأبعد عن دواعى الُحبّ إنى رأيتُ الحزم من صِفة الرَّشيد

(١) المخافتة : إسرار المنطق .

(٢) فى الاصل : «توحش» .

رأيتُ الحب أوّله التصدى ... بعينك فى أزاهير الخدود

فبينا أنت مغتبط مُخَلًّي ... إذا قد صرت في حَلَق القُيود

كمُغترّ بضَحضاح قَريب ... فذلّ فغاب فى غَمْر المُدود(١)

وإني لأطيل العجب من كل مَن يدعى أنه يحب مِن نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حُبه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون فى ظنّي متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً فى حِجاب القلب فما أقدر ذلك ، وما لصِق بأحشائى حُب قطُّ إلا مع الزمن الطويل و بعد ملازمة الشخص لى دهراً وأَخذى معه فى كل جدّ وهزل، وكذلك أنا فى السلوّ والتوقى ، فما نسيت ودًّا لى قطُّ ، وإن حَنيني إلى كل عهد تقدم لى ليُغِصّني بالطعام و يُشرقنى بالماء ، وقد استراح مَن لم تكن هذه صفتهُ . وما مللتُ شيئاً قط بعد معرفتى به ، ولا أسرعت إلي الأُنس بشيء قط أولَ لقائى له ، وما رغبتُ فى الاستبدال إلى سبب من أسبابى مذ كنت ، لا أقول فى الألاّف والإخوان وحدهم ، لكن فى كل مايَستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك ، وما انتفعتُ بعيش ولا فارقنى الإطراق والانفلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشَجًى يعتادنى وولوع همّ ما ينفكّ يَطْرُقنى ، ولقد نَغّص(٢) تذكرى ما مَضى كُلّ عيش أستأنفه ، وإنى لقَتيل الهموم فى عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا . والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

محبة صدقٍ لم تكن بنتَ ساعةٍ ... ولا وَرِيتْ حين ارتيادٍ زنادُها

ولكنْ على مَهَل سرتْ وتولّدت ... بطول امتزاج فاستقرّ عمادُها

فلم يَدْن منها عزمُها وانتقاضُها ... ولم يَنأَ عنها مُكْثها وازديادها

يؤكِّد ذا أنَّا نرى كلّ نَشأة ... تَتِمّ سريعاً عن قَريب معادها

---

(١) المدود : جمع مد ، وهوالماء الكثير .

(٢) فى الاصل : « نقص » .

ولـكِنَّنى أرض عَزازٌ صليبةٌ   مَنيع إلى كل الغروس أنقيادها
فما نَفدت منها لديها عُروقها   فليست تُبالى أن يَجود عِهادُها

ولا يظن ظانّ ولا يتوهّم متوهّم أن كل هذا مخالف لقولى المسطر فى صدر الرسالة ، أن الحب اتصال بين النفوس فى أصل عالمَها العُلْوى ، بل هو مؤكِّد له . فقد علمنا أن النفس فى هذا العالم الأدنى قد غمرتها الُحجب ، ولحقتها الأغراض ، وأحاطت بها الطبائع الأرضية الـكونية ، فسترت كثيراً من صفاتها و إن كانت لم تحلّه ، لـكن حالت دونه فلا يُرجَى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس والاُستعداد له ، و بعد إيصال المعرفة إليها بما يشا كلها و يوافقها ، ومقابلة الطبائع التى خفيت مما يُشابهها من طبائع المحبوب ، فحينئذ يتصل أتصالا صحيحا بلا مانع .

وأما ما يقع من أول وهـــلة ببعض أعراض الأُستحسان الجسدىّ ، وأُستطراف البصر الذى لا يجاوز الألوان ، وهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة ، فإذا غَلبت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق الفصلَ أتصالٌ نفسانى تشترك فيه الطبائع مع النفس يُسمَّى عشقاً . ومن هذا دخل الغَلَط على من يزعُم أنه يُحب اثنين و يعشق شخصين متغايرين ، فإنمـا هذا من جهة الشهوة التى ذكرنا آنفاً ، وهى على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق ، وأما نفس المحب فما فى المَيل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه فـكيف بالأُشتغال بُحب ثان . وفى ذلك أقول :

كَذب المُـدعى هوَى أثنين حتماً   مثلَ ما فى الأصول أُكذب مانى
ليس فى القلب موضعٌ لحبيبيـ   ـن ولا أحدثُ الأمور بثانى
فـكما العقلُ واحـدٌ ليس يَدرى   خالقاً غيرَ واحـــد رَحمان
فـكذا القلبُ واحدٌ ليس يهوى(١)   غيرَ فَرد مُباعدٍ أو مدان
هو فى شِرْعة المودةِ ذو شـــكّ   بعيد من صحة الإيمان

---

(١) فى الأصل : «يقوى» .

وكذا الدِّين واحدٌ مستقيمٌ   وكَفور مَن عنْده دِينان

وإنى لأعرف فتًى من أهل الجدّ والحسب والأدب كان يبتاع الجارية وهي سالمة الصدر من حُبه ، وأكثر من ذلك كارهة له لقلة حلاوة شمائل كانت فيه ، وقُطوب دائم كان لا يفارقه ولا سيما مع النساء ، فكان لا يلبث إلا يسيراً ريثما يصل إليها بالجماع و يعود ذلك الكُره حُبًّا مُفرطاً وكلفاً زائداً واستهتاراً مكشوفاً ، و يتحول الضجر لصحبته ضجراً لفراقه . صحبه[1] هذا الأمر فى عدة منهن . فقال بعضُ إخوانى : فسألته عن ذلك فتبسّم نحوى وقال : إذاً والله أخبرك ، أنا أبطأ الناس إنزالا ، تقضى المرأة شهوتها وربما ثنّت و إنزالى وشهوتى لم ينقضيا بعد ، وما فترت بعدها قط ، وإنى لأبقى بمُنّتى بعد انقضائها الحين الصالح . وما لاقى صدرى صدر امرأة قط عند الخلوة إلا عند تعمدى المعانقة ، و بحسب ارتفاع صدرى نزولُ مؤخرى .

فمثل هذا وشبهه إذا وافق أخلاق النفس ولّد المحبة ، إذ الأعضاء الحسّاسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها .

باب

من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها

واُعلم أعزّك الله أن للحُب حكما على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وأمراً لا يخالف ، وحدّا لا يُعصى ، وملكاً لا يتعدّى ، وطاعة لا تُصرف ، ونَفاذاً لا يُرد ؛ وأنه ينقض المِرَر ، ويَحُلّ المُبرم ، ويُحلّل الجامد ، ويُخِلّ الثابت ، ويَحل الشغافَ ، ويُحِلّ الممنوع ، ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يُتهمون فى تمييزهم ، ولا يُخاف عليهم سقوط فى معرفتهم ، ولا اُختلال بحُسن اُختيارهم ، ولا تقصير فى حَدْسهم ، قد وصفوا أحباباً لهم فى بعض صفاتهم بما ليس بمُستحسن عند الناس ولا يرضى فى الجمال ، فصارت هجّيراهم ، وعُرضة لأهوائهم ، ومنتهى اُستحسانهم .

(١) فى الأصل : « صحبته » .

ثم مضى أولئك إمّا بسلوّ أو بَيْن أو هجر أو بعض عوارض الحب ، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلُها ، على ما هو أفضل منها في الخليقة ، ولا مالوا إلى سواها ؛ بل صارت تلك الصفات المُستجادة عند الناس مهجورةً عندهم وساقطة لديهم إلى أن فارقوا الدنيا وأُنقضت أعمارهم ، حنيناً منهم إلى مَن فقدوه ، وألفة لمن صحبوه . وما أقول إن ذلك كان تصنّعًا لكن طبعا حقيقيًا واختياراً لا دَخَل فيه ، ولا يرون سواه ، ولا يقولون في طيّ عَقْدهم بغيره . وإني لأعرف من كان في جِيد حبيبه بعضُ الوقص فما أستحسن أغيد ولا غيداء بعد ذلك . وأعرف مَن كان أولَ علاقته بجارية مائلة إلى القِصَر فما أحبّ طويلةً بعد هذا . وأعرف أيضاً مَن هوى جارية في فمها فَوَه لطيف فلقد كان يتقذّر كل فم صغير ويذُمه ويَكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف عن مَنقوصي الحظُوظ في العلم والأدب لكن عن أوفر الناس قسطاً في الإدراك ، وأحقهم بأُسم الفهم والدّراية .

وعنّي أخبرك أني أحببتُ في صباي جاريةً لي شقراء الشعر فما أُستحسنتُ من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه . وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت ، لا تؤُاتيني نفسي على سواه ولا تحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عَرض لأبي رضي الله عنه وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجلُه .

وأما جماعة خلفاء بني مروان — رحمهم الله — ولا سيّما ولدُ الناصر منهم، فكلهم مجبولون على تفضيل الشُقرة ، لا يختلف في ذلك منهم مختلف . وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لَدُن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر ، نزاعاً إلى أمهاتهم ، حتى قد صار ذلك فيهم خِلقة ، حاشَى سليمان الظافر رحمه الله ، فإني رأيته أسود اللمّة واللحية .

وأما الناصر والحكم المُستنصر رضي الله عنهما فحدّثني الوزير أبي رحمه الله

وغيره أنهما كانا أشقرَين أشهلين ، وكذلك هشام المؤيّد ومحمد المهدى وعبد الرحمن المرتضى رحمهم الله ، فإنى قد رأيتهم مراراً ودخلت عليهم فرأيتهم شُقراً شُهلا ، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم ، فلا أدرى أذلك استحسان مركّب فى جميعهم أم لرواية كانت عند أسلافهم فى ذلك فجروا عليها . وهذا ظاهر فى شعر عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن أمير المؤمنين الناصر وهو المعروف بالطليق ، وكان أشعر أهل الأندلس فى زمانهم ، وأكثر تغزله فبالشُّقر ، وقد رأيته وجالسته .

وليس العجب فيمن أحبّ قبيحاً ثم لم يَصحبه ذلك فى سواه ، فقد وقع من ذلك ، ولا فيمن طُبع مذ كان على تفضيل الأدنى ، ولكن فيمن كان ينظرُ بعين الحقيقة ثم غَلب عليه هوًى عارضٌ بعد طول بقائه فى الجماعة فأحاله عما عهدته نفسُه حوالةً صارت له طبعاً ، وذهب طبعه الأول وهو يعرف فضل ما كان عليه أوّلا . فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأبَى إلا الأدنى . فأعجب لهذا التغلب الشديد والتسلط العظيم ، وهو أصدق المحبة حقا ، لا من يتحلّى بشيَم قوم ليس منهم ، ويدّعى غريزة لا تقبله فيزعم أنه يتخيّر من يحب ، أمّا لو شغل الحب بصيرته ، وأطاح فكرته ، وأجحف بتمييزه ، لحال بينه و بين التخيّل والأرتياد . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

منهم فتًى كان فى محبوبه وقَص ... كأنما الغَيْد فى عَيْنيه جنّان
وكان مُنبسطاً فى فَضل خِبْرته ... بحُجة حقّها فى القول تِبْيان
إنّ المَها وبها الأمثالُ سائرةٌ ... لايُنكر الحسنَ فيه الدهرَ إنسان
وُقْصٌ فليس بها عَنقاء واحدةٌ ... وهل تُزان بطُول الجيد بُعْران
وآخَر كان فى محبوبه فَوَهٌ ... يقول حَسْبىَ فى الأفْواهِ غِزْلان
وثالثٌ كان فى محبوبه قِصر ... يقول إنّ ذواتِ الطُّول غِيلان

وأقول أيضاً :

يَعيبونها عنـدى بشُقرة شَعرها فقلت لهم هذا الذى زانها عِنْدى
يَعيبون لونَ النَّور والتِّبر ضِلَّةً لرأىِ جهول فى الغِواية ممتدّ
وهل عاب لونَ النَّرجس الغَض عائبٌ ولونَ النجوم الزاهرات على البُعد
وأبعدُ خَلْق الله من كُل حكمة مُفضِّل جرْمٍ فاحم اللون مُسودّ
به وُصفت ألوان أهل جهنَّم ولِبْسة باكٍ مُثْكل الأهل مُحتدّ
ومُذ لاحت الرَّايات سُودًا تيقَّنت نفوسُ الورى أن لا سبيلَ إلى الرُّشد

باب التعريض بالقول

ولا بُد لـكل مَطلوب من مَدخل إليه ، وسبب يُتوصّل به نحوه ، فلم ينفرد بالأختراع دون واسطة إلا العليمُ الأول جلّ ثناؤه . فأول مايَستعمل طُلَّاب الوصل وأهل المحبة فى كشف مايجدونه إلى أحبتهِم التعريضُ بالقول ، إما بإنشاد شعر ، أو بإرسال مُثُل ، أو تعمية بيت ، أو طرح لغز ، أو تسليط كلام .

والناس يختلفون فى ذلك على قدر إدراكهم ، وعلى حسب مايرونه من أحبتهم من نفار أو أنس أو فطنة أو بلادة . وإنى لأعرف من أبتدأ كشف محبّته إلى من كان يُحب بأبيات قلتُها . فهذا وشبهه يَبتدىء به الطالب المودة ، فإن رأى أنسًا وتسهيلًا زاد ، وإن يُعاين شيئاً من هذه الأمور فى حين إنشاده لشىء مما ذكرنا ، أو إيراده لبعض المعانى التى حدّدنا ، فانتظاره الجواب ، إما بلفظ أو بهيئة الوجه والحركات ، لموْقِفٌ بين الرجاء واليأس هائل ، وإن كان حيناً قصيراً ، ولـكنه إشراف على بلوغ الأمل أو انقطاعه .

ومن التعريض بالقول : جنسٌ ثان ، ولا يكون إلا بعد الأتفاق ومعرفة المحبّة من المحبوبِ ، فحينئذ يقع التشكّى وعقد المواعيد والتعرير وإحكام المودات بالتعريض ، وبكلام يظهر لسامعه منه معنى غيرُ مايذهبان إليه ، فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدّى إلى المقصود بالـكلام ، على حسب مايتأدّى إلي سمعه ويسبق إلى وهمه ، وقد فهم كلٌ واحد منهما عن صاحبه وأجابه بما لا يفهمه

غيرُها ، إلاّ من أُيد بحسّ نافذ ، وأُعين بذكاء ، وأُمدَّ بتجربة ، ولا سيما إن أحس من معانيهما بشيء . وقَلَّما يغيب عن المتوسّم المُجيد ، فهنالك لا خفاء عليه فيما يريدان .

وأنا أعرف فتى وجارية كانا يتحابان ، فأرادها فى بعض وَصْلها على بعض مالَا يجمل . فقالت : والله لأشكونّك فى الملأ علانيةً ولأفضحنك فضيحة مستورة . فلما كان بعد أيام حضرت الجاريةُ مجلس بعض أكابر المُلوك وأركان الدولة وأجلّ رجال الخلافة ، وفيه ممن يُتوقَّي أمره من النساء والخدم عددٌ كثير ، وفى جملة الحاضرين ذلك الفتى ، لأنه كان بسبب من الرئيس ، وفى المجلس مغنيات غيرُها . فلما انتهى الغناء إليها سوَّت عودها وأندفعت تغنى بأبيات قديمة ، وهى :

غَزال قد حَكَى بدرَ التَّمام ... كشمس قد تجلّت من غَمام
سَبى قلبى بألحاظ مِراضٍ ... وقَدِّ الغُصن فى حُسن القَوَام
خَضعتُ خُضوعَ صَبٍّ مُستكين ... له وَذَلّت ذِلّة مُستهام
فَصِلْنى يافديتُك فى حَلَال ... فما أهوى وصالاً فى حَرام

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت :

عِتابٌ واقع وشَكاةُ ظُلْم ... أتَتْ من ظالمٍ حَكَمٍ وخَصْم
تَشكّت مابها لم يَدْرِ خَلْق ... سِوَى المشكُوِّ ما كانتْ تُسمِّى

باب الاشارة بالعين

ثم يتلو التعريضَ بالقبول ، إذا وقع القبولُ والموافقة ، الإشارةُ بلحظ العين.

وإنه ليقوم فى هذا المعنى المقامَ المحمود ، ويبلغ المبلغ العجيب ، ويُقطَع به ويُتواصل ، ويُوعد ويُهدد ، ويُنتهر ويبسط ، ويُؤْمر وينهى ، وتُضرب به الوعود ، ويُنبّه على الرقيب ، ويضحك ويحزن ، ويسأل ويجاب ، ويمنع ويعطى .

ولكل واحد من هذه المعانى ضرب من هيئة اللحظ لا يُوقف على تحديده إلا بالرؤية ، ولا يُمكن تصويرُه ولا وصفُه إلا بالأقل منه . وأنا واصف ماتيسر من هذه المعانى :

فالإشارة بمُؤَخِر العين الواحدة نَهى عن الأمر ، وتفتيرها إعلام بالقبول ، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسر نظرها آية الفرح .

والإشارة إلى اطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مُشار إليه .

والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاهما سؤال ، وقلب الحدقة من وسط العين إلى المُوق بسرعة شاهدُ المنع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام . وسائر ذلك لايدرك إلا بالمشاهدة .

واعلم أن العين تنوب عن الرُّسل ، ويدرك بها المراد . والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً ، وهى رائد النفس الصادق ودليلها الهادى ومرآتها المجلوة التى بها تقف على الحقائق وتميّز الصفات وتفهم المحسوسات . وقد قيل : ليس المُخبرَ كالمعاين . وقد ذكر ذلك افليمون صاحبُ الفِراسة وجعلها مُعتمده في الحكم . وبحسبك من قوة إدراك العين أنها إذا لاقى شعاعُها شعاعًا مجلوًّا صافياً ، إما حديداً مفصولا أو زجاجاً أو ماء أو بعض الحجارة الصافية أو سائر الأشياء المجلوة البراقة ذوات الرفيف والبصيص واللمعان ، يتصل أقصى حدوده بجسم كثيف ساترٍ مناع كدر ، انعكس شعاعُها فأدرك الناظرُ نفسَه ومازها عياناً . وهو الذى ترى في المرآة ، فأنت حينئذ كالناظر إليك بعين غيرك . ودليل عيانىّ على هذا أنك تأخذ مرآتين كبيرتين فتُمسك إحداهما بيمينك خلف رأسك والثانية بيسارك قُبالة وجهك ثم تزويها قليلا حتى يلتقيان بالمقابلة ، فإنك ترى قفاك وكلَّ ما وراءك . وذلك لانعكاس ضوء العين إلى ضوء المرآة التى خلفك ، إذ لم تجد

منفذاً فى التى بين يديك ، ولما لم يجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف إلى ماقابله من الجسم . وإن كان صالح غلام أبى إسحاق النظّام خالف فى الإدراك فهو قول ساقط لم يوافقه عليه أحد . ولو لم يكن من فضل العين إلا أنّ جوهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكاناً ، لأنها نوريّة لا تُدرَك الألوان بسواها ، ولا شىء أبعد مرمي ولا أنأى غاية منها ، لأنها تُدرَك بها أجرام الكواكب التى فى الأفلاك البعيدة ، وترى بها السماء على شدّة ارتفاعها وبُعدها ، وليس ذلك إلا لاتصالها فى طبع خِلقتها بهذه المرآة ، فهى تدركها وتصل إليها بالنظر ، لا على قطع الأماكن والحلول فى المواضع وتنقّل الحركات ، وليس هذا لشىء من الحواس مثل الذوق واللمس لا يُدركان إلا بالمجاورة ، والسمع والشم لا يدركان إلا من قريب . ودليل على ما ذكرناه من النظر أنك ترى المُصوِّت قبل سماع الصوت ، وإن تعمّدت إدراكهما معاً . وإن كان إدراكهما واحداً لمَا تقدّمت العينُ السمعَ .

باب المراسلة

ثم يتلو ذلك إذا امتزجا المراسلةُ بالكتب . وللكتب آيات . ولقد رأيتُ أهل هذا الشأن يُبادرون لقطع الكُتُبِ وبحلّها فى الماء وبمحو أثرها ، فرُبّ فضيحة كانت بسببِ كتاب . وفى ذلك أقول :

عزيزٌ علىّ اليومَ قطعُ كتابكم ... ولكنّه لم يُلْفَ للوُدِّ قاطِعُ

فآثرتُ أن يبقى ودادٌ وينمحى ... مِدَادُ فإن الفرْع للأصل تابع

فكم من كِتاب فيه مِيتةُ ربِّه ... ولم يَدْرِه إذ نمّقته الأصابع

وينبغى أن يكون شكل الكتاب ألطفَ الأشكال ، وجنسُه أملحَ الأجناس . ولعمرى إن الكتاب لَلِسانُ فى بعض الأحايين ، إما لحصَرٍ فى الإنسان وإما لحياء وإما لهيبة . نعم ، حتى إنّ لوصول الكتاب إلى المحبوب وعِلم المُحب أنه قد وقع بيده ورآه للذةً يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن لرد الجواب

والنظر إليه سروراً يَعدل اللقاء ، ولهذا ما ترى العاشق يَضع الكتاب على عينيه وقلبه ويُعانقه . ولعهدى ببعض أهل المحبة ، ممن كان يَدرى ما يقول ويحسن الوصف ويعبِّر عما فى ضميره بلسانه عبارةً جيدة ويُجيد النظر ويدقق فى الحقائق ، لا يَدع المُراسلة وهو مُمكن الوصل قريبُ الدار أتىّ المَزار ، ويَحكى أنها وجوه اللذة . ولقد أُخبرت عن بعض السُّقّاط الوُضعاء أنه كان يضع كتاب محبو به على إحليله . وأن هذا النوع من الاغتلام قَبيح وضَرب من الشَّبق فاحش .

وأما سَقى الحِبْرِ بالدّمع فأعرف مَن كان يفعل ذلك ويُقارضه محبو به ، يسقى الحبر بالرِّيق . وفى ذلك أقول :

جوابٌ أتانى عن كِتاب بعثتُه ... فسكَّن مُهتاجاً وهيَّج ساكناً
سقيتُ بدَمع العين لمّا كتبتُه ... فِعالَ مُحب ليس فى الوُد خائناً
فما زال ماء العين يَمْحو سُطُورَه ... فيا ماءَ عينى قد محوتَ المحاسنا
غَدا بدُموعى أول الخط بيننا ... وأضحى بدَمعى آخرُ الخط بائنا

خبر :

ولقد رأيتُ كتابَ المُحب إلى محبو به ، وقد قَطع فى يده بسكّين له فسال الدم واستمد منه وكتب به الكتاب أجمعَ . ولقد رأيت الكتاب بعد جُفوفه فما شككت أنه بصِبْغ اللكّ .

باب السفير

ويقع فى الحب بعد هذا ، بعد حُلول الثقة وتمام الأُستئناس ، إدخال السفير . ويجب تخيُّره وأُرتياده وأُستجادته وأُستفراهه ، فهو دليل عقل المرء ، وبيده حياته وموته ، وستره وفضيحته بعدالله تعالى . فينبغى أن يكون الرسول ذا هيئة ، حاذقاً يكتفى بالإشارة ، ويقرطس عن الغائب ، ويُحسن من ذات نفسه ويَضع من

عَقله ما أغفله(١) باعثهُ ، و يؤدى إلى الذى أرسله كل ما يشاهد على وجهه كأنما كان للأسرار حافظا ، وللعهد وفيا ، قنوعا ناصحاً . ومن تعدّى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نَقصه منها . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

رسولك سيفٌ فى يَمينك فاُستجِدْ   حُساماً ولا تَضرب به قبل صقله

فمن يك ذا سيف كهَام فضُرّه   يعود على المعنىّ منه بجَهله

وأكثر ما يستعمل المُحبُّون فى إرسالهم إلى من يُحبونه ، إما خاملا لا يُؤبه له ولا يُهتدى للتحفظ منه ، لصباه أو لهيئة رثّة أو بدادة فى طلعته .

و إما جليلاً لا تلحقه الظِّنن لنُسك يُظهره أو لسنٍّ عالية قد بلغها . وما أكثر هذا فى النساء ولا سيما ذوات العكاكيز والتَّسابيح والثّوبين الأحمرين . و إنى لأذكر بقُرطبة التحذيرَ للنساء المُحدَثات من هذه الصفات حيثما رأيتها .

أو ذوات صناعة يقرَّب بها من الأشخاص . فمن النساء كالطبيبة والحجّامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمُعلمة والمُستخفة والصّناع فى المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك .

أو ذا قرابة من المرسَل إليه لا يشحّ بها عليه . فكم مَنيع سُهّل بهذه الأوصاف . وعسير يُسرّ ، و بعيد قُرِّب . وجَموح أنس ، وكم داهية دهت الُحجب المصونة ، والأستار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، لأرباب هذه النعوت . ولولا أن أنبه عليها لذكرتها ، ولكن لقطع النظر فيها وقلة الثقة بكل واحد . والسعيدُ من وُعظ بغيره . وبالضد تتميز الأشياء . أسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره ، ولا أزال عن الجميع ظل العافية .

خبر :

و إنى لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامةً مؤدَّبة ، و يُعقد الكتاب فى جناحها . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

---

(١) فى الأصل : « ما أعقله » .

تخَـيَّرها نوحٌ فما خاب ظنُّه ... لديها وجاءت نحوَه بالبشائرِ
سأُودِعها كُتْبي إليك فما كها ... رَسائلَ تُهدَى فى قوادم طائرِ

باب طى السر

ومن بعض صفاتِ الحب الكتمانُ باللسان ، وجحود المحب إن سئل ، والتصنّع بإظهار الصبر ، وأن يُرى أنه عِزّهاة خلىّ . ويأبى السرُّ الدقيق ، ونارُ الكلف المتأججة فى الضلوع ، إلا ظهوراً فى الحركاتِ والعين ، ودبيباً كدبيب النار فى الفحم والماء فى يبيس المَدر . وقد يمكن التَّمويه فى أول الأمر على غير ذى الحسّ اللطيف ، وأما بعد استحكامه فمحال . وربما يكون السبب فى الكتمان تَصاونُ المُحب عن أن يَسِمَ نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة ، فيفرّ منها ويتفادى ، وما هذا وجه التصحيح ، فبحسب المرء المُسلم أن يعفّ عن محارم الله عزّ وجل التى يأتيها باُختياره ويُحاسب عليها يوم القيامة . وأما أستحسان الُحسن وتمكن الحب فطَبع لايُؤمر به ولايُنهى عنه ، إذ القلوب بيد مُقلبها ، ولايَلْزمه غيرُ المعرفة والنظر فى فرق مابين الخطأ والصواب وأن يعتقد الصحيح باليقين . وأما المحبة فخِلقة ، وإنما يملك الانسان حركات جوارحِه المكتسبة . وفى ذلك أقول :

يلوم رجالٌ فيك لم يَعرفوا الهَوى ... وسيّان عِندى فيك لاحٍ وساكتُ
يقولون جانبتَ التّصاون جُملةً ... وأنت عليهم بالشّريعة قانِت
فقلتُ لهم هذا الرِّياءُ بعَينـه ... صُراحًا وزىٌّ للمرائين ماقت
متى جاء تحريمُ الهوى عن مُحمد ... وهل مَنْعه فى مُحكم الذِّكر ثابت
إذا لم أواقع مُحرَّماً أتّقى به ... مَجيئىَ يومَ البعث والوجه باهِت
فلستُ أبالى فى الهوى قولَ لائم ... سواءٌ لَعمرى جاهرٌ أو مُخافت
وهل يَلزم الإِنسانَ إلا اُختيارُه ... وهل بخَبايا اللفظ يُؤخذ صامت

خبر :

وإني لأعرف بعضَ من اُمتُحن بشيء من هذا فسكن الوجدُ بين جوانحه ، فرام جَحْده إلى أن غَلَظ الأمر ، وعرف ذلك في شمائله مَن تعرّض للمعرفة ومن لم يتعرض . وكان مَن عَرض له بشيء نَجهه[1] وقبَّحه . إلى أن كان مَن أراد الحظوة لديه من إخوانه يُوهمه تصديقَه في إنكاره وتكذيبَ من ظن به غير ذلك ، فسر بهذا . ولعهدي به يوماً قاعداً ومعه بعضُ من كان يَعرض له بما في ضميره ، وهو ينتفي غاية الانتفاء ، إذ اجتاز بهما الشخص الذي كان يُتهم بعلاقته ، فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اُضطرب وفارق هيئته الأولى واُصفر لونه وتفاوتت معاني كلامه بعد حُسن تثقيف ، فقطع كلامَه المتكلمُ معه . فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره . فقيل له : ماعدا عما بدا. فقال: هو ما تظنون ، عذر من عذر ، وعذل من عذل . ففي ذلك أقول شعراً ، منه :

ماعاش إلا لأنّ الموتَ يرحمه   مما يرى من تَباريح الضّنى فيه

وأنا أقول : دُموع الصبّ تَنْسفكُ   وسِتْر الصبّ يَنْهتكُ
كأنّ القلبَ إذ يبدو   قَطاة ضَمَّها شَرَكُ
فيا أصحابَنا قولوا   فإن الرأى مُشْترك
إلى كم ذا أُكاتمه   وما لى عنه مُتَّرك

وهذا إنما يَعرض عند مُقاومة طبع الكتمان ، والتصاون لطبع المُحب وغلبته ، فيكون صاحبه متحيِّراً بين نارين مُحرقتين . وربما كان سبب الكتمان إبقاء المحب على محبوبه ، وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع . وفي ذلك أقول :

دَرى الناسُ أني فتىً عاشقٌ   لثيبٌ مُعنَّى ولكنْ بِمَنْ
إذا عاينوا حالتي أُيقنوا   وإنْ فَتَّشوا رجَعوا في الظِّنن
كخَطٍّ يُرى رَسْمُه ظاهراً   وإن طلبوا شرحَه لم يبُن

(١) النجه : استقبالك الرجل بما يكره وردك إياه عن حاجته ، أو هو أقبح الرد .

كصوت حَمام على أيكة ... يرجّع بالصوت فى كُل فَنّ

تلذّ بفحْـواه أسماعُنـا ... وَمعناه مُستعجِم لم يَبِن

يقولون بالله سَمٍّ الذى ... نَفَى حُبَّه عنكِ طيب الوَسن

وهيهات دون الذى حاولوا ... ذَهاب العقُول وخوض ُالفتِن

فهم أبداً فى اُختلاج الشكوك ... بظنٍّ كقطْع وقَطع كظن

وفى كتمان السر أقول قطعة ، منها :

للسّر عندِى مكانٌ لو يحلّ به ... حىٌّ إذاً لا اُهتدى ريبُ المَنونِ له

أميته وَحيـاة السرِّ مِيتتُه ... كما سُرورالمُعنّى فى الهَوى الوَله

وربما كان سبب الـكِتمان توقّى اُلمحب على نفسه من إظهار سره ، لجلالة قدر المحبوب .

خبر :

ولقد قال بعضُ الشعراء بقُرطبة شـعراً تغزل فيـه بصُبح أُم المؤيَّد رحمه الله . فغنّت به جاريةٌ أُدخلت على المنصور محمد بن أبى عامر ليبتاعَهـا ، فأمر بقتلها .

خبر :

وعلى مثل هذا قُتِـل أحمد بن مُغيث . واُستئصالُ آل مُغيث والتَّسجيل عليهم ألّا يُستخدَم بواحد منهم أبداً حتى كان سبباً لهلاكهم واُنقراض بيتهم . فلم يبق منهم إلا الشريد الضال . وكان سببُ ذلك تغزّله بإحدى بنات اُلخلفاء . ومثل هذا كثير .

ويُحـكى عن الحسن بن هانىء أنه كان مُغرماً بحُب محمدبنهارون المعروف بابن زُبيدة . وأحسّ منه ببعض ذلك فانتهره ، على إدامة النظر إليه . فذُكر عنه أنه قال إنه كان لا يقدر أن يُديم النظر إليه إلا مع غلبة السُّـكر على محمد . وربما كان سبب الـكِتمان ألاّ يَنفِر المحبوب أو يُنفَر به . فإنى أدرِى مَن كان

محبوبه له سكناً وجليساً ، لو باح بأقل سبب من أنه يهواه لـكان منه مناط الثريا قد تعلّت نجومها . وهذا ضرب من السياسة ، ولقد كان يبلُغ من اُنبساط هذا المذكور مع محبوبه إلى فوق الغاية وأبعد النهاية ، فما هو إلا أن باح اليه بما يجد فصار لايصل إلى التافه اليسير مع التيه ودالّة الحب وتمنع الثقـة بملك الفؤاد ، وذهب ذلك الانبساط ووقع التصنّع والتجنى ، فـكان أخاً فصار عبداً ، ونظيراً فعاد أسيراً ، ولو زاد فى بَوحه شيئاً إلى أن يعلم خاصّة المحبوب ذلك لما رآه إلا فى الطيف ، ولاُنقطع القليل والـكثير ، ولعاد ذلك عليه بالضرر .

وربما كان من أسباب الـكتمان الحْياء الغالب على الإنسان . وربما كان من أسباب الـكتمان أن يرى المحب من محبوبه انحرافاً وصدّا ويكون ذا نفس أبيّة ، فيستتر بما يجدلئلا يَشمت به عدو ، أو يريهم وَمن يُحب هوانَ ذلك عليه .

باب الاذاعة

وقد تَعْرِض فى الُحب الإذاعة ، وهو من مُنكر مايحدُث من أعراضه ، ولها أسباب ، منها :

أن يُريد صاحبُ هذا الفعل أن يتزيّا بزىّ المُحبين ويدخل فى عِدادهم ، وهذه خلافة لاتُرضى ، وتخليج بغيض ، ودعوى فى الحب زائفة .

وربما كان من أسباب الـكشف غلبةُ الحب وتسوّر الجهر على الحياء . فلا يملك الانسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عَدْلا . وهـذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحـكّمه على العقل ، حتى يمثل الحْسن فى تمثال القبيح ، والقبيح فى هيئة الحسن . وهنالك يرى الخير شرًّا ، والشر خيراً . وكم من مَصون الستر مُسـبل القِناع مَسدول الغِطاء قد كَشف الحبُّ سـتْره ، وأباح حريمه ، وأهمل حِماه . فصار بعد الصيانة عَلَماً ، وبعد السـكون مثلًا . وأحبُّ شىء إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ، ولطالت استعاذته منه . فسَهُل ما كان وعراً ، وهان ما كان عزيزاً ، ولان ما كان شديداً .

ولعهدى بفتىً من سَرَوات الرجال وعِلْية إخوانى قد دُهِى بمحبّة جاريةٍ مقصورة هام بها وقطعه حُبُّها عن كثير من مصالحه ، وظهرت آيات هواه لكل ذى بصر ، إلى ان كانت هى تعذله على ماظهر منه مما يقوده إليه هواه :

خبر :

وحدّثنى موسى بن عاصم بن عمرو قال : كنت بين يدى أبى الفتح والدى رحمه الله وقد أمرنى بكتاب أكتبه . إذ لمحتْ عينى جاريةً كنت أكلَف بها ، فلم أملك نفسى ورميتُ الكتاب عن يدى وبادرتُ نحوها . وبُهت أبى وظن أنه عرض لى عارض . ثم راجعنى عقلى فمسحتُ وجهى ثم عُدت واُعتذرت بأنه غَلبنى الرُّعاف .

واُعلم أن هذا داعيةُ نِفار المحبوب ، وفساد فى التدبير ، وضعف فى السياسة. وما شيء من الأشياء إلا وللمأخذ فيه سُنة وطريقة ، متى تعدّاها الطالب ، أوخرَق فى سلوكها أنعكس عمله عليه ، وكان كدّه عناء ، وتعبه هباء ، وبحثه وباء . وكلما زاد عن وجه السِّيرة انحرافاً وفى تجنّبها إغراقاً وفى غير الطريق إيغالاً ازداد عن بلوغ مراده بعداً . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

ولاَ تَسْعَ فى الأمرِ الجسيم تهازُءًا ولا تَسْعَ جَهراً فى اليَسير تُريده
وقابلْ أفانين الزَّمان متى يَرِدْ عليك فإنّ الدهرَ جَمٌّ ورُوده
فأشكالُها من حُسن سَعْيك يَكفك اليْسير بغيرٍ والشريد شريده (١)
ألم تُبصرِ المِصْباح أولَ وَقْده وإشعاله بالنَّفخ يُطْفا وُقوده
وإن يتَصرَّم لَفْحه ولَهيبه فنفخُك يُذْكيه وَتبْدو مُدوده

خبر :

وإنى لأعرف من أهل قُرطبة من أبناء الكتاب وجلّة الخدَمة من أسمه

---

(١) كذا ورد هذا البيت فى الأصل .

أحمد بن فَتْح ، كنت أعهده كثيرَ التصاون ، من بُغاة العلم وطُلاب الأدب ، يبز أصحابه في الانقباض ، ويفوتهم في الدَّعة ، لا ينظر إلا في حَلْقة فضل ، ولا يُرى إلا في محفل مرضّى ، محمود المذاهب ، جميل الطريقة ، بائناً بنفسه ، ذاهباً بها . ثم أبعدت الأقدارُ داري من داره ، فأول خَبر طرأ عليّ بعد نزولي شاطبة أنه خلع عذاره في حُب فتى من أبناء الفتّانين يُسمى إبراهيم بن أحمد أعرفه ، لا تستأهل صفاته محبة مَن بيتُه خير وتقدّم ؛ وأموال عريضة ووفر تالِد ، وصحّ عندي أنه كَشف رأسه وأبدى وجهه ورَمى رَسَنه وحَسر مُحيَّاه وشمَّر عن ذراعيه وصمد صَمْد الشهوة ، فصار حديثاً للسمار ومُدافعاً بين نقلة الأخبار ، وتُهودي ذِكْره في الأقطار ، وجرت نقلته في الأرض راحلةً بالتعجّب ، ولم يحصل من ذلك إلا على كشف الغطاء ، وإذاعة السر ، وشُنْعة الحديث . وفَتح الأحدوثة ، وشُرود محبوبه عنه جملة . والتَّحظير عليه من رؤيته ألبتة ، وكان غنياً عن ذلك وبمندوحة ومعزل رحب عنه . ولو طوى مكنون سرّه ، وأخفَى بليّات ضميره لاُستدام لباس العافية ، ولم يُنهج [١] بُرد الصيانة ، ولكان له في لِقاء من بُلي به ومحادثته ومجالسته أمل من الآمال ، وتعلّل كاف ، وإنّ حَبل العذر ليقطع به ، والحُجة عليه قائمة ، إلا أن يكون مُختلطاً في تمييزه ، أو مصاباً في عقله بجليل مافدَحه . فربما آل ذلك لعذر صحيح ، وإما أن كانت بقية من عقل أو ثبتت مُسكه فهو ظالم في تعرضه ما يعلم أن محبوبه يكرهه ويتأذى به .

هـذا غير صفة أهل الحب ، وسيأتي هذا مفسراً في باب الطاعة إن شاء الله تعالى .

ومن أسباب الكشف وجه ثالث

وهو عند أهل العقول وجه مرذول وفعل ساقط ، وذلك أن يرى المُحب مِن محبوبه غدراً أو مللا أو كراهة ، فلا يجد طريقَ الانتصاف منه إلا بما ضرره

---

(١) نهج الثوب : أخلقه .

عليه أعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار. وهذا أشدّ العار وأقبح الشنار وأقوى بشواهد عدم العقل ووجود السخف. وربما كان الكشف من حديث يَنتشر وأقاويل تفشو، توافق قلة مبالاةٍ من المحب بذلك، ورضى بظهور سره، إما لإعجاب وإما لاستظهار على بعض ما يؤمله. وقد رأيت هذا الفعل لبعض إخوانى من أبناء القوّاد، وقرأت فى بعض أخبار الأعراب أن نساءهم لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حُبه ويجاهر ويعلن وينوه بذكرهن؛ ولا أدرى ما معنى هذا، على أنه يذكر عنهن العفاف، وأى عفاف مع امرأة أقصى مُناها وسرورها الشهرة فى هذا المعنى.

باب الطاعة

ومن عجيب ما يَقع فى الُحب طاعةُ المحب لمحبوبه، وصرفُه طباعَه قسراً إلى طباع من يُحبه ورُبما يكون المرء شَرِسَ الخلق، صعب الشكيمة، جموح القياد، ماضى العزيمة، حَمِىّ الأنف، أبى الخسف، فما هو إلا أن يتنسّم نسيمَ الحب، ويتورّط غمره، ويعوم فى بحره، فتعود الشراسةَ لِياناً، والصعوبة سهلة، والمضاء كلالة، والحمية استسلاماً. وفى ذلك أقول قطعة، منها:

فهل للوصال إلينا مَعَاد ... وهل لتصاريف ذا الدّهر حدّ
فقد أصبح السيفُ عبدَ القَضِيب ... وأضحى الغَزال الأسيرُ أسد

وأقول شعراً، منه:

وإنى وإنْ تَعتِب لأهونُ هالكٍ ... كذائبِ نُقْرٍ[1] زلّ من يدجِهبّذ
على أن تَقْتلى فى هواك لذاذةٌ ... فيا عجباً من هالك متلذّذ

ومنها.

ولو أبصرتْ أنوارَ وجهك فارسٌ ... لأغناهمُ عن هِرَمزان ومَوْبِذ

وربما كان المحبوب كارهاً لإظهار الشكوى متبرماً بسَماع الوَجد، فترى

---

(١) نقر، بالضم: جمع نقرة، وهى القطعة الذائبة من الذهب والفضة.

المُحب حينئذ يكتُم حزنه ويكظِم أسفه ويَنطوى على علّته . وإن الحبيب مُتجنٍّ ، فعندها يقع الاعتذار عند كل ذنب والإقرار بالجريمة ، والمرء منها برىء ، تسليما لقوله وتركاً لمخالفته . وإنى لأعرف من دُهى بمثل هذا فما كان ينفكّ من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له ، وإيقاع العتاب عليه والسخط وهو نقى الجلد .

وأقول شعراً إلى بعض إخوانى ، ويقرب مما نحن فيه وإن لم يكن منه :

وقد كنت تلقانى بوجه لقُربه ... تَدانٍ وللهجران عن قُربه سخطُ

وما تكره العَتْبَ اليسير سجيّتى ... على أنه قد عِيب فى الشَّعَر الوَخْط

فقد يُتعب الإنسانَ فى الفكر نفسَه ... وقد يَحسُن الخِيلانُ فى الوجه والنَّقْط

تَزِين إذا قلّت ويَفْحُش أمرها ... إذا أفرطت يوماً وهل يُحمد الفَرط

ومنه :

أعِنْه فقد أضحى لفَرْط همومه ... يَبكي إذ القرطاس والحِبر والخط

ولا يقولنّ قائل إن صبر المحب على ذلّة المحبوب دَناءة فى النفس فقد أخطأ ، وقد علمنا أنّ المحبوب ليس له كفوًا ولا نظيراً فيُقارض بأذاه ، وليس سبّه وجفاه مما يعيّر به الإنسان ويبقى ذكره على الأحقاب ، ولا يقع ذلك فى مجالس الخلفاء ، ولا فى مقاعد الرؤساء ، فيكون الصبر جارًّا المذلة ، وضراعة قائدة للاستهانة ، فقد ترى الإنسان لا يكلَف بأَمته التى يملك رقّها ، ولا يحول حائل بينه وبين التعدّى عليها فكيف الانتصارُ منها . وسبل الامتعاض من السبب غير هذه ، إنما ذلك بين عِلْية الرجال الذين تحصل أنفاسهم وتتبع معانى كلامهم فتوجّه لها الوجوه البعيدة ، لأنهم لا يُوقعونها سدى ولا يُلقونها هملاً ، وأما المحبوب فصَعْدة ثابتة وقضيب مُنآد ، يجفو ويرضى متى شاء لا لمعنى وفي ذلك أقول :

ليس التذلّل فى الهوى يُستنكر ... فالحُبّ فيه يَخضَع المُستكبر

لاتعجبوا من ذلّتى فى حالةٍ قد ذلّ فيها قبلىَ المُستبصر
ليس الحَبيب مماثلا ومُكافياً فيكونَ صبرُك ذلةً إذ تَصبر
تُفاحة وقعت فآلم وَقْعُها هل قَطْعُها منكَ انتصاراً يذكر

خبر :

وحدّثني أبو دلف الورّاق عن مَسلمة بن أحمد الفيلسوف المعروف بالمَرجيطى أنه قال فى المسجد الذى بشرقىّ مقْبرة قريش بقرطبة الموازى لدار الوزير ابن عمرو أحمد بن محمد جدير رحمه الله : فى هذا المسجد كان مقدم بن الأصفر مريضاً أيام حداثته لعشق بعجيب ، فتى الوزير أبى عمرو المذكور . وكان يترك الصلاة فى مسجد مسرور وبها كان سكناه ، ويقصد فى الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب، حتى أخذه الحرس غير مامرّة فى الليل فى حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة ، وكان يقعد وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر ويقوم إليه فيُوجعه ضرباً ويلطم خدَّيه وعينيه ، فيسر بذلك ويقول : هذا والله أقصى أمنيتى والآن قرّت عينى ، وكان على هـذا زماناً يماشيه .

قال أبو دلف : ولقد حدّثنا مُسلم بهذا الحديث غير مرة بحضرة عجيب عندما كان يَرى من وجاهة مقدّم بن الأصفر وعرض جاهه وعافيته ، فكانت حال مقدم بن الأصفر هذا قد جلّت جدا واُختص بالمظفر بن أبى عامر اختصاصاً شديداً واتصل بوالدته وأهله وجرى على يديه من بنيان المساجد والسقايات وتسهيل وجوه الخير غيرُ قليل ، مع تصرّفه فى كل ما يتصرف فيه أصحاب السلطان من العناية بالناس وغير ذلك .

خبر :

وأشنع من هذا أنه كانت لسعيد بن مُنذر بن سعيد صاحب الصلاة فى جامع قرطبة أيام الحكم المستنصر بالله رحمه الله جاريةٌ يحبها حبّا شديداً ،

فعرض عليها أن يُعتقها و يتزوّجها . فقالت له ساخرة به ، وكان عظيم اللحية : إن لحيتك أستبشع عِظَمها فإن حذفت منها كان ماتَرغبه . فأعمل الجلمين فيها حتى لَطُفت . ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها ، ثم خَطبها إلى نفسه فلم ترض به. وكان فى جملة من حضر أخوه حكم بنُ منذر فقال لمن حضر : أعرض عليها أنى أخطبها أنا ، ففعل فأجابت إليه . فتزوجها فى ذلك المجلس بعينه ورضى بهذا العار الفادح على ورعه ونُسكه واُجتهاده .

فأنا أدركت سعيداً هذا وقد قَتله البربر يوم دخولهم قرطبة عَنوة واُنتهابهم إياها وحكم المذكور أخوه هو رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلّمهم وناسكهم ، وهو مع ذلك شاعر طيب وفقيه . وكان أخوه عبدالملك بن مُنذر متهماً بهذا المذهب أيضاً . ولى خُطبة الرد (١) أيام الحكم رضى الله عنه . وهو الذى صَلبه المنصور بن أبى عامر إذ اُتهمه هو وجماعة من الفقهاء والقضاة بقرطبة أنهم يُبايعون سرًّا لعبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر رضى الله عنهم ، فقُتل عبد الرحمن وصُلب عبد الملك بن منذر و بدّد شمل جميع من اُتهم . وكان أبوهم قاضى القضاةِ منذر بن سعيد متهماً بمذهب الاُعتزال أيضاً . وكان أخطب الناس وأعلمهم بكُل فن وأورعهم وأكثرهم هزلا ودُعابة . وحكم المذكور فى الحياة فى حين كتابتى إليك بهذه الرسالة قد كُف بصره وأسنّ جدا .

خبر :

ومن عجيب طاعة المُحب لمحبو به أنى أعرف مَن كان سَهِر الليالى الكثيرة ولقى الجهد الجاهِد فقطعتْ قلبَه ضروبُ الوَجد . ثم ظفر بمن يُحب وليس به اُمتناع ولا عنده دفع ، فحين رأى منه بعضَ الكراهة لما نَواه تركه واُنصرف عنه ، لاتعففاً ولا تخوّفاً لكن توقّفاً عند مُوافقته رضاه . ولم يجد من نفسه مُعينا

---

(١) فى الأصل : « الرى » .

على إتيان مالم يرَ له إليه نشاطاً وهو يَجد مايجد . وإنى لأعرف من فعل هـذا الفعل ثم تندّم لعذر [١] ظهر من المحبوب . فقلت فى ذلك :

غافِص الفُرصـة وأعلم أنهـا كمُضِيّ البرق تمْضى الفُرص

كم أمور أمكنت أُمهلتهـا هى عندى إذ تولّت غُصص

بادر الـكنز الذى ألفيتَـه وانْتهزْ صبراً كبازٍ يقْنص

ولقد عرض مثلُ هذا بعينه لأبي المطفَّر عبد الرحمن بن أحمد بن محمود صديقنا وأنشدته أبياتاً لى فطار بها كل مطار ، وأخذها منى فـكانت هجيراه .

خبر :

ولقد سألنى يوماً أبو عبد الله محمد بن كُليب من أهل القيروان أيامَ كونى بالمدينة ، وكان طويل اللسان جدًّا متقفّاً للسؤال فى كل فن ، فقال لى وقد جرى بعض ذكر الحب ومعانيه : إذا كره من أحب لقائى وتجنّب قربى فما أصنـع ؟ قلت : أرى أن تسعى فى إدخال الرَّوْح على نفسك بلقائه وإن كره . فقـال : لـكنى لا أرى ذلك بل أوثر هواه على هواى ومُراده على مرادى ، واصبر ولو كان فى ذلك الحْتف . فقلت له : إنى إنما أحببتهُ لنفسى ولالتذاذها بصورته فأنا أتبع قياسى وأقود أصلى وأقفو طريقتى فى الرغبة فى سرورها . فقال لى : هذا ظلم من القياس ، أشد من الموت ماتمنى له الموت . وأعز من النفس ما بذلت له النفس . فقلت له : إن بذلت نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً ، ولو أمكنك ألاّ تبذلها لما بذلتها ، وتركك لقاءه اختياراً منك أنت فيه ملوم لإضرارك بنفسك وإدخالك الحتف عليها . فقال لى : أنت رجل جدليّ ولا جدل فى الحب يلتفت إليـه . فقلت له : إذاً كان صاحبه مؤُوفا [٢] فقال : وأىّ آفة أعظم من الحب .

باب المخالفة

وربما أتبع المحب شهوتَه وركب رأسه فبلغ شِـفاءه من محبوبه ، وتعمّد

---

(١) فى الاصل : « وتعذر ما » . (٢) المؤوف : الذى به آفة .

مسرته منه على كل الوجوه سخط أو رضى . ومَن ساعده على الوقت هذا وثَبت جنانُه وأُتيحت له الأقدار اُستوفى لذته جميعها وذهب غمّه وانقطع همّه و رأى أمله و بلغ مرغو به . وقد رأيتُ مَن هذه صفتهُ . وفى ذلك أقول أبياتاً ، منها :

إذا أنا بَلّغت نفسى المُنى مِن رَشأ مازال لى مُمْرِضاً
فما أُبالى الكُره من طاعة ولا أُبالى سَخطاً مِن رِضا
إذا وجدتُ الماء لابُدّ أن أُطفى به مُشْعل جَمْر الغضا

باب العاذل

وللحُب آفات ، فأَوّلها العاذل . والعُذّال أقسام ، فأصلهم صديقٌ قد أسقطتَ مؤونةَ التحفّظ بينك و بينه فعَذْلُه أفضل من كثير المساعدات ؟ وهى من الحظ والنهي ، وفى ذلك زاجر للنفس عجيب ، وتقوية لطيفة لها عرض ، وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة ، ولا سيما ان كان رفيقاً فى قوله حسن التوصل إلى مايُورد من المعانى بلفظه ، عالماً بالأوقات التى يؤكّد فيها النهى ، و بالأحيان التى يزيد فيها الأمر . والساعات التى يكون فيها وقفاً بين هذين ، على قدر مايرى من تسهيل العاشق و توعّره ، وقَبوله وعصيانه .

ثم عاذل زاجر لايُفيق أبداً من المَلامة ، وذلك خطب شديد وعبء ثقيل. وَوقع لى مثلُ هذا ، وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يُشبهه ، وذلك أن أبا السرىّ عمار بن زياد صديقَنا أكثر من عذلى على نحو نحوتُه وأعان علىّ بعضُ من لامنى فى ذلك الوجه أيضاً ، وكنت أظن أنه سيكون معى مُخطئاً كنتُ أو مصيباً . لوَكيد صداقتى وصحيح أخوتى به .

ولقد رأيت مَن اشتد وَجْده وعَظُم كلفه حتى كان العَذْل أحبَّ شىء إليه، ليُرى العاذلَ عصيانَه و يستلذّ مخالفته ، و يحصّل مقاومته للائمة وغلبته إياه. كالملك الهازم لعدوه والمجادل الماهر الغالب لخصمه ، و يُسَرَ بما يقع منه فى ذلك و ربما

كان هذا المستجلب لعذل العاذل بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل وفى ذلك أقول أبياتاً ، منها :

أَحبُّ شيء إِلىّ اللومُ والعَذْل كى أسمعَ اُسمَ الذى ذِكْراهُ لى أمَل
كأننى شاربٌ بالعَذْل صافيةً وباُسمِ مولاى بعد الشُّرب أنتقل

باب المساعد من الاخوان

ومن الأسباب المتمنّاة فى الُحْب أن يهب الله عزّ وجل للإنسان صـديقاً مُخلصاً ، لطيفَ القول ، بسيط الطَّول . حسنَ المأخذ . دقيق المنفذ . متمكنَ البيان ، مُرهف اللسان ، جليل الحلم ، واسع العلم ، قليل المخالفة ، عظيم المساعفة ، شديد الاحتمال صابراً على الإدلال ، جم الموافقة ، جميل المخالفة، مستوى المطابقة، محمود الخلائق ، مكفوف البوائق ، محتوم المساعدة ، كارهاً للمباعدة ، نبيل المدخل، مصروف الغوائل ، غامض المعانى ، عارفاً بالأمانى ، طيب الأخـلاق ، سرىّ الاعراق ، مكتوم السر ، كثير البر ، صحيح الأمانة ، مأمون الخيـانة ، كريم النفس ، نافذ الحس ، صحيح الحدس ، مضمون العون ، كامل الصون ، مشهور الوفاء ، ظاهر الغَناء ، ثابت القريحة ، مبذول النصيحة ، مستيقن الوداد ، سهل الأُنقياد ، حسن الاعتقاد ، صادق اللهجة ، خفيف المهجة ، عفيف الطبـاع ، رحب الذراع ، واسع الصدر ، متخلقاً بالصـبر ، يألف الإمحاض ، ولا يعرف الإعراض ، يستريح إليه ببلابله ، ويشاركه فى خلوة فقره ، ويفاوضه فى مكتوماته ، وإن فيه للمحب لأعظمَ الراحات ، وأين هذا ، فإن ظفرتْ به يداك فشُدَّهما عليه شد الضنين ، وأمسك بهما إمساك البخيل ، وصُنه بطارفك وتالدك ، فمعه يكمل الأنس ، وتنجلى الأحزان ، ويقصر الزمان ، وتطيب الأحوال. ولن يفقد الانسان من صاحبِ هذه الصفة عوناً جميلا ، ورأياً حسناً ، ولذلك اتخذ الملوك الوزراء والدخلاء كى يخففوا عنهم بعضَ ما حملوه من شديد الأمورِ وطُوِّقوه من باهض الأحمال . ولـكى يستغنوا بآرائهم ويستمدّوا بـكفايتهم . وإلا فليس فى قوة

الطبيعة أن تقاوم كل ما يَرِد عليها دون أستعانة بما يشا كلها وهو من جنسها .
ولقد كان بعض المحبين ، لعدمه هذه الصفة من الإخوان وقلّة ثقته منهم لما جرّ به
من الناس وأنه لم يعدم مَن باح إليه بشيء من سرّه أحد وجهين إما إزرآء على
رأيه و إما إذاعة لسره ، أقام الوُحدة مقام الأُنس . وكان ينفرد فى المكان
النازح عن الأنيس ، و يناجى الهوى ، و يكلم الأرض ، و يجد فى ذلك راحة كما
يجد المريض فى التأوه والمحزون فى الزفير ؛ فإن الهموم إذا ترادفت فى القلب ضاق
بها ، فإن لم يُنْضِ منها شيء باللّسان ، ولم يسترح إلى الشكوى لم يلبث أن يهلك
غمّا و يموت أسفاً . وما رأيت الاسعاد أكثر منه فى النساء . فعندهن من المحافظة
على هذا الشأن والتواصى بكتمانه والتواطؤ على طيّه إذا أُطلعن عليه ماليس عند
الرجال ، وما رأيت أمرأة كشفت سرّ متحابين إلا وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة
مرمية عن قوس واحدة . و إنه ليوجد عند العجائز فى هذا الشأن مالا يوجد
عند الفتيات ، لأن الفتيات منهن ربما كشفن ماعلمن على سبيل التغاير ، وهذا
لايكون إلا فى النُّدرة . وأما العجائز فقد يئِسن من أنفسهن فانصرف الإشفاق
محضاً إلى غيرهن .

خبر :

و إنى لأعلم أمرأة مُوسرة ذات جوار وخَدَم ، فشاع على إحدى جواريها
أنها تعشق فتيً من أهلها و يعشقها وأن بينهما معانى مكروهة ، وقيل لها : إن
جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندها جلية أمرها . فأخذتها وكانت غليظة العقوبة
فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء مالا يَصبر على مثله جُلداء الرجال ، رجاء
أن تبوح لها بشيء مما ذُكر لها ، فلم تفعل البتة .

خبر :

و إنى لأعلم أمرأة جليلة حافظة لكتاب الله عزّ وجل ناسكة مقبلة على
الخير ، وقد ظَفرت بكتاب لفتى إلى جارية كان يكلَف بها ، وكان فى غير ملكها ،

فعرّفته الأمر فرام الإنكار فلم يتهيأ له ذلك ، فقالت له : مالك ؟ ومن ذا عُصم ؟ فلا تُبال بهذا فوالله لاأطلعت على سرّكما أحداً أبداً ، ولو أمكنتنى أن أبتاعها لك من مالى ولو أحاط به كله لجعلتها لك فى مكان تصل إليها فيه ولا يَشعر بذلك أحد ؛ و إنك لترى المَرأة الصالحة المُسنَّة المُنقطعة الرجاء من الرجال ، وأحبّ أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها سعيُها فى تَزويج يتيمة ، و إعارة ثيابها وحَليها لعروس مُقلّة . وما أعلم علّة تمكن هذا الطبعَ من النساء إلا أنهن متفرّغات البال من كل شيء إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه لاشغل لهن غيره ولا خُلقن لسواه . والرجال مُقتسمون فى كسب المال وصحبة السلطان وطَلب العلم وحياطة العِيال ومُكابدة الأسفار والصيد وضُروب الصناعات ومُباشرة الحروب ومُلاقاة الفِتَن وتحمّل المخاوف وعمارة الأرض ، وهذا كله مُتحيّف للفراغ ، صارف عن طريق البُطْل . وقرأت في سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكّل ثقةً له بنسائه يُلقى عليهن ضريبةً من غزل الصوف يشتغلن بها أبد الدهر ؛ لأنهم يقولون : إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تشوق إلى الرجال ، وتحنّ إلى النكاح . ولقد شاهدت النساء وعلمتُ من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيرى ؛ لأنى رُبيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرَهن . ولا جالستُ الرجال إلا وأنا فى حدّ الشباب وحين تفيّل وجهى . وهن علّمننى القرآن وروّيننى كثيراً من الأشعار ودرّبننى فى الخط ، ولم يكن وُكدى و إعمال ذهنى مذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة جدًّا إلا تعرّف أسبابهن ، والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك . وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن ، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعتُ عليها ، وسوء ظن فى جهتهن فُطرتُ به ، فأشرفتُ من أسبابهن على غير قليل . وسيأتى ذلك مفسراً فى أبوابه إن شاء الله تعالى .

باب الرقيب

ومن آفات الحب الرقيبُ ، و إنه لَحُمّى باطنة ، و برسام مُلحّ ، وفكر

مُـكِبّ . والرقباء أقسام ، فأولهم مُثْقِل بالجلوس غير متعمّد فى مكان أُجتمع فيه المرء مع محبوبه ، وعزما على إظهار شيء من سرّهما والبوح بوجدهما والانفراد بالحديث . ولقـد يعرض للمُحب من القلق بهـذه الصفة مالا يعرض له مما هو أشد منها ، وهـذا وان كان يزول سريعاً فهو عائق حالَ دون المُراد وقَطع متوفر الرجاء .

خبر :

ولقد شاهدت يوماً مُحبين فى مكان قد ظنّا أنهما أنفردا فيه وتأهّبا للشكوى فاُستحليا ماهما فيه من الخلوة ، ولم يكن الموضع حمًى ، فلم يلبثا أن طلع عليهما من كانا يَستثقلانه ، فرَأى فعَدَل إليّ وأطال الجلوس معى ، فلو رأيتَ الفتى المحب وقد تمازج الأسفُ البادى على وجهه مع الغضب لرأيت عجباً . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

يُطيل جُلوساً وهو أثقل جالس ويُبدي حديثاً لستُ أرضى فُنونه
شَمام ورَضْوى واللُّـكام وَيذبل ولُبنان والصّمان والحرب دونه

ثم رقيب قد أحس من أمرهما بطَرف ، وتوجّس من مذهبهما شيئاً ، فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك ، فيُدمن الجلوس ، ويطيل القعود ، ويتخفى بالحركات ، ويرمُق الوُجوه ، ويحصّل الأنفاس . وهذا أعدى من الحرب ، وإنى لأعرف مَن همّ أن يُباطش رقيباً هذه صفتُه . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

مُواصل لايُغبّ قَصـداً أعْظِم بهـذا الوصال غمّا
صار وصِرْنا لفَرْط مالاَ يَزُول كالأُسم والمُسمَّى

ثم رقيب على المحبوب ، فذلك لاحيلةَ فيه إلا بترضية . وإذا أرضي فذلك غاية اللذة ، وهذا الرقيب هو الذى ذكرته الشعراء فى أشعارها . ولقد شاهدتُ مَن تلطف فى استرضاء رقيب حتى صار الرقيبُ عليه رقيباً له ، ومتغافلاً فى وقت التغافل ، ودافعاً عنه وساعياً له . ففى ذلك أقول :

وربُ رقيب أرقبوه فلم يزل | على سيدى عمداً ليبعدنى عنه
فما زالت الألطاف تحكم أمره | إلى أن غدا خوفى له آمناً منه
وكان حُساماً سُلّ حتى يهُدنى | فعاد مُحبّاً ما لنعمته كُنْه

وأقول قطعة ، منها :

صار حياةً وكان سَهْم رَدًى | وكان سمًّا فصار دِرْياقاً

وإنى لأعرف مَن رقَّب على بعض من كان يُشفق عليه رقيباً وثِق به عند نفسه ، فكان أعظمَ الآفة عليه وأصلَ البلاء فيه .

وأما إذا لم يكن فى الرقيب حيلة ولا وجد إلى ترضّيه سبيل فلا طمع إلا بالإشارة بالعين همساً وبالحاجب أحياناً والتعريض اللطيف بالقول ، وفى ذلك مُتعة وبلاغ إلى حين يقنع به المُشتاق . وفى ذلك أقول شعراً أوله :

على سيّدى منى رقيبٌ محافظٌ | وفىٌّ لمن والاه ليس بنا كث

ومنه :

ويقطع أسباب اللُّبانة فى الهوى | ويفعل فيها فِعْل بعض الحوارث
كأنّ له فى قلبه ريبة تُرى | وفى كُل عين مُخبر بالاحادث

ومنه :

على كُل من حولى رقيبان رتّبا | وقد خصَّنى ذو العرش منهم بثالث

وأشنع مايكون الرقيب إذا كان ممن أُمتُحن بالعشق قديماً ودُهى به وطالت مدته فيه ثم عُرى عنه بعد إحكامه لمعانيه ، فكان راغباً فى صيانة من رقّب عليه . فتبارك الله أى رقبة تأتى منه ، وأى بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته . وفى ذلك أقول :

رَقيب طالما عَرَف الغَراما | وقاسَى الوَجْد وأُمتنع المَناما
ولاقَى فى الهَوى ألما أليما | وكاد الُحب يُورده الحِماما
وأتقن حيلةَ الصَّبّ المُعَنّى | ولم يَضع الإشارة والكلاما

وأعقبه التسلّي بعد هـذا وصار يرى الهوى عاراً وذاما
وصيَّر دون من أهوى رقيباً ليُبعد عنـه صَبًّا مُستهاما
فأيّ بليَّـة صُبَّت علينـا وأي مُصيبة حلّت لِماما

ومن طريف معاني الرقباء أني أعرف محبين مذهبُهما واحد في حُب محبوب واحد بعينه ، فلعهدي بهما كُل واحد منهما رقيب على صاحبه . وفي ذلك أقول :

صَبّان هَيْمانان في واحدٍ كلاهما عن خِدْنه منحرف
كالـكلب في الآري[1] لا يعتلف ولا يُخلّي الغيرَ أن يعتلف

باب الواشي

ومن آفات الحُب الواشي ، وهو على ضربين . أحدهما واش يريد القَطع بين المتحابين فقط ، و إن هذا لأفترهما سوأة ، على أنه السم الذّعاف والصاب الممقر والحتف القاصد والبلاء الوارد . وربما لم يَنجع ترقيشه[2] . وأكثر مايـكون الواشي فإلى المحبوب ، وأما الحب فهيهـات ، حال الجريض دون القريض . ومنع الحرَب من الطرب ، شغله بما هو مانع له من استماع الواشي . وقد علم الوُشاة ذلك ، و إنمـا يقصدون إلى الخليّ البال ، الصائل بحوزة الملك ، المتعتب عند أقل سبب .

و إن للوُشاة ضروباً من التَّنقيل ، فمنها أن يذكر للمحبوب عمن يُحب أنه غير كاتم للسر ، وهـذا مكان صعب المُعاناة ، بطيء البُرء إلا أن يوافق معارضاً للمُحب في محبته . وهذا أمر يوجب النِّفار ، فلا فرج للمحبوب إلا بأن تُساعده الأقدار بالأطلاع على بعض أسرار من يُحب ، بعد أن يكون المحبوب ذا عقل ، وله حظ من تمييز ، ثم يَدعه والمُطاولة . فإذا تـكذّب عنده نَقْل الواشي مع ماأظهر من الجفاء والتحفظ ولم يسمع لسره إذاعة علم أنه إنما زوّر له الباطل ، واُضمحـل ماقام في

(١) الآري : محبس الدابة .
(٢) الترقيش : الـكلام المزين المزخرف .

نفسه . ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المحبين مع بعض من كان يحب ، وكان المحبوب شديدَ المراقبة عظيم الكتمان ، وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت أعلام ذلك فى وجهه وحدَث فى حُب لم يكن ، وركبته رحمة ، وأظلته فكرة ، ودهمته حيرة ، إلى إن ضاق صدره و باح بما نُقل إليه . فلو شاهدت مقام المحب فى اُعتذاره لعلمت أن الهوى سلطان مُطاع ، و بناء مشدود الأواخى ، وسنان نافذ ، وكان اعتذاره بين الاُستسلام والاعتراف ، والإنكار والتوبة والرمى بالمقاليد ، فبعد لأيٍ ماصلح الأمر بينهما .

وربما ذكر الواشى أن ما يُظهر المحب من المحبة ليست بصحيحة ، وأن مذهبه فى ذلك شِفاء نفسه و بلوغ وَطره . وهذا فصل و إن كان شديداً فى النقل فهو أيسر مُعاناة مما قبله ، فحالة المحب غير حالة المتلذذ ، وشواهد الوجد متفرقة بينهما . وقد وقع من هذا نُبذ كافية فى باب الطاعة . وربما نقل الواشى أن هوى العاشق مشترك وهذه النار المُحرقة والوَجع الفاشى فى الأعضاء ، وإذا وافق الناقل لهذه المقالة أن يكون المُحب فتىً حسنَ الوجه حُلو الحركات مرغوباً فيه مائلًا إلى اللذات دُنياوى الطبع ، والمحبوب اُمرأة جليلة القدر سرِّية المنصب ، فأقرب الأشياء سَعْيها فى إهلاكه وتصدِّيها لحتفه . فكم صريع على هذا السبب ، وكم مَن سُقى السم فقَطع أمعاءه لهذا الوجه . وهذه كانت ميتة مروان بن أحمد بن حدير ، والد أحمد المتنسك ، وموسى وعبد الرحمن ، المعروفين بابنى لبنى ، من قِبل قَطْر الندى جاريته . وفى ذلك أقول محذِّراً لبعض إخوانى قطعة ، منها :

وهل يأمن النسوانَ غيرُ مغفَّلٍ ... جَهول لأسباب الردَى مُتارِّض (١)
وكم واردٍ حوضاً من الموت أسود ... ترشّفه مِن طيِّب الطعم أبيض

والثانى واشٍ يَسعى للقَطْع بين المُحبين لينفرد بالمحبوب و يستأثر به . وهذا

---

(١) متارض : متعرض متصد .

أشد شيء وأقطعه وأجزم لاجتهاد الواشي واستفادة جُهده .

ومن الوُشاة جِنس ثالث ، وهو واشٍ يَسعى بهما جميعاً ويكشف سرّهما ، وهذا لا يُلتفت إليه إذا كان المُحب مساعداً . وفي ذلك أقول :

عجبتُ لواشٍ ظَلَّ يكشِف أمرَنا وما بِسَوى أخبارنا يتنفّس

وماذا عليه من عَنائي ولَوْعتي أنا آكلُ الرّمان والوُلْد تَضرس

ولا بد أن أُورد ما يُشبه ما نحن فيه ، وإن كان خارجاً منه ، وهو شيء في بيان التنقيل والنمائم . فالكلام يدعو بعضُه بعضاً كما شرطنا في أول الرسالة ، وما في جميع الناس شر من الوُشاة ، وهم النمامون ، وإن النميمة لطَبْع يدُل على نتن الأصل ورداءة الفَرع وفساد الطبع وخُبث النشأة ، ولا بد لصاحبه من الكذب .

والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه ، وكل نمّام كذّاب ، وما أحببت كذاباً قط ، وإني لأسامح في إخاء كل ذي عَيب وإن كان عظيما ، وأكِل أمره إلى خالقه عزّ وجل ، وآخذ ما ظَهر من أخلاقه ، حاشى مَن أعلمه يكذب فهو عندي ماحٍ لكل محاسنه ، ومُعَفٍّ على جميع خِصاله ، ومُذهب كلَّ ما فيه ، فما أرجو عنده خيراً أصلا ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه. وكل ذام فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه ، حاشى الكذب فلا سبيلَ إلى الرجعة عنه ولا إلى كتمانه حيث كان . وما رأيت قط ولا أخبرني مَن رأى كذّاباً وترك الكذب ولم يعد إليه ، ولا بدأت قط بقطيعة ذي معرفة إلا أن أطلع له على الكذب ، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته والمتعرِّض لمتاركته ، وهي سِمة ما رأيتُها قط في أحد إلا وهو مَزْنون في نفسه إليه بشق ، مغموز عليه لعاهة سوء في ذاته . نعوذ بالله من الخذلان .

وقد قال بعض الحكماء : آخِ من شئت واجتنب ثلاثة : الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، والمَلُول فإنه أوثق ما تكون به لطول الصحبة وتأكدها يخذلك ، والكذّاب فإنه يجني عليك آمنَ ما كنت فيه من حيثُ لا تشعر .

وحديث عن رسول الله صلّى الله عليه سلم : حسن العهد من الإيمان .

وعنه عليه السلام : لا يؤُمِن الرجلُ بالإيمان كله حتى يدع الكذب فى المُزاح .

حدثنا بهما أبو عمر أحمد بن محمد عن محمد بن علىّ بن رِفاعة عن علىّ بن عبد العزيز عن أبى عُبيد القاسم بن سلاّم عن شيوخه ، والآخر منهما مُسند إلى عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما .

والله عز وجل يقول : (يا أَيها الذين آمنوُا لِمَ تقُولون ما لا تفْعلون . كَبُر مَقْتاً عند الله أنْ تقُولُوا ما لا تفْعلون) .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سُئل هل يكون المؤمن بَخيلاً ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤُمن جَباناً ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمن كَذّاباً ؟ قال : لا .

حدّثناه أحمد بن محمد بن أحمد عن أحمد بن سَعيد عن عُبيد الله بن يحيى عن أبيه عن مالك بن أنس عن صَفوان بن سليم .

وبهذا الإسناد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا خيرَ فى الكذب . فى حديث سُئل فيه .

وبهذا الإسناد عن مالك أنه بلغه عن أُبن مسعود أنه كان يقول : لا يزال العَبد يكْذِب وينكت فى قلبه نُكتة سوداء حتى يَسودّ القلب فيُكتب عند الله من الكذابين .

وبهذا الإسناد عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: عليكم بالصِّدق فإنه يهدى إلى البر والبرّ يهدى إلى الجنة . وإياكم والكذب فإنه يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار .

وروى أنه أتاه صلَّى الله عليه وسلم رجل فقال : يارسول الله ، إنى أستتر بثلاث : الخمر والزنا والكذب . فمُرنى أيهما أترك . قال : اترك الكذب . فذهب منه . ثم أراد الزنا ففكر فقال : آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألنى : أزنيت ؟

فإن قلت : نعم ، حدّنى ؛ و إن قلت : لا ، نقضت العهد . فتركه . ثم كذلك فى الخمر . فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى تركت الجميع .

فالكذب أصل كل فاحشة ، وجامع كل سوء ، وجالبٌ لمقت الله عز وجل .
وعن أبي بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : لا إيمان لمن لا أمانة له .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : كل الخلال يُطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ثلاث من كُن فيه كان منافقا : من إذا وعد أخلف ، و إذا حدث كذب ، وإذا أؤتمن خان .

وهل الكُفر إلا كذب على الله عز وجل ، والله الحق وهو يحب الحق وبالحق قامت السموات والأرض . وما رأيت أخزى من كذّاب ، وما هلكت الدول ولا هلكت الممالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الأستار بغير النمائم والكذب ، ولا أكدت البغضاء والإحَن المُردية إلا بنمائم لا يَحْظى صاحبها إلا بالمَقت والخزى والذل ، وأن ينظر منه الذى ينقل إليه فضلاً عن غيره بالعين التى ينظر بها من الكاب . والله عزّ وجل يقول : (وَيْلٌ لِكُلّ هُمَزة لُمَزَة) . و يقول جل من قائل : (يا أيها الذين آمنُوا إن جاَءكم فاسقٌ بنَبإٍ فتبينَّوا) . فسمى النقل باسم الفسوق . و يقول : (ولا تُطع كُلَّ حَلاَّف مَهين . همَّازمَشَّاء بنَمِيم . مناع للخير معتد أثيم . عُتُل بعد ذلك زنيم) . والرسول عليه السلام يقول : لا يدخل الجنة قَتَّات[1] و يقول : و إياكم وقاتل الثلاثة . يعني المنقِّل والمنقول إليه والمنقول عنه . والأحنف يقول : الثقة لا يبلِّغ ، وحق لذى الوَجهين ألاّ يكون عند الله وجيهاً . وهو ما يَجعله من أخسّ الطبائع وأرذلها .

و لِى إلى أبى إسحاق إبراهيم بن عيسى الثَّقفى الشاعر رحمه الله ، وقد نَقل إليه رجل من إخوانى عني كذباً على جهة الهزل ، وكان هذا الشاعر كثيرَ الوهم فأغضبه

(١) قتات : نمام .

وصدّقه ، وكلاهما كان لى صديقاً ، وما كان الناقل إليه من أهل هــذه الصفة ولـكنه كان كثير المُزاح جم الدعابة . فكتبت إلى أبى إسحاق ، وكان يقول بالخبر ، شعراً منه :

ولا تتبدّل قالةً قد سمعتها ... تُقال ولا تدرى الصحيحَ بما تَدرى
كمَن قد أراق المـاء للآل إن بدا ... فلاقَى الرّدى فى الأفيح المَهمه القفْر

وكتبتُ إلى الذى نقل عنى ، شعرا منه :

ولا تَزْعُمًا فى الجدّ مَزْحاً كمُولج ... فَساد عِلاج النَّفس طىّ صلاحها
ومَن كان نَقْلُ الزُّور أمضَى سِلاحه ... كمِثل الحُبارى (١) تتقّى بسُلاحها

وكان لى صديق مرة ، وكثُر التدخيل بينى وبينه حتى كَدح ذلك فيه واستبان فى وجهه وفى لحظه ، وطُبعتُ على التأنى والتربّص والمُسالمة ما أمكنت ، ووجدت بالانخفاض سبيلاً إلى معاودة المودة ، فكتبت إليه شعراً ، منه :

ولى فى الذى أُبدى مرامٍ لو اُنهـا ... بدت ما ادّعى حُسن الرماية وَهْرز

وأقول مخاطباً لعُبيد الله بن يحيى الجزيرى الذى يحفظ لعمّه الرسائل البليغة ، وكان طبْع الـكذب قد أستولى عليه وأُستحوذ على عقله وألفه ألفة النفس الأمل ، ويؤكِّد نقله وكذبه بالأيمان المؤكَّدة المُغلَّظة ، مجاهراً بها أكذب من السراب ، مستهتراً بالـكذب مشغوفاً به ، لا يزال يحدث من قد صحّ عنده أنه لا يصدقه ، فلا يزجره ذلك عن أن يحدث بالـكذب :

بدا كلُّ ما كَتَّمته بين مُخبر ... وحالٍ أرتنى قُبح عَقدك بيِّنَا
وكم حالةٍ صارت بَياناً بحـالة ... كما تُثبت الأحكامُ بالحَبَل الزنا

وفيه أقول قطعة منها :

أنمُّ من المِرآة فى كل ما دَرى ... وأقْطع بين الناس من قَصَب الهنْد
أظن المَنـــايا والزّمان تعلما ... تَحيُّـله بالقَطع بين ذَوى الوُدّ

---

(١) الحبارى : طائر أكبر من الدجاج الأهلى .

وفيه أيضاً أقول من قصيدة طويلة :

وأكذب من حُسْن الظُّنون حديثُه ... وأقبح من دَيْنٍ وفقرٍ مُلازِمِ

أوامرِ ربِّ العرش أضيعُ عنـدهُ ... وأهونُ من شكوَى إلى غير راحم

تَجمَّع فيـه كلّ خِزْى وفَضْحة ... فلم يُبْقِ شتماً فى المقـال لشاتم

وأثقلُ من عَذْل على غير قابِلِ ... وأبرد بَرْداً من مدينة سالم

وأبغض من بَين وهَجر ورِقْبـة ... جُمِعْن على حرَّان حَيْران هائم

وليس من نَبّه غافلاً ، أونصح صديقاً ، أو حفظ مسلماً ، أو حكي عن فاسق ، أو حدث عن عدو ما لم يكن يكذب ولا يكذب ، ولا تعمد الضغائن ، متنقِّلا . وهل هلك الضعفاء وسقط من لا عقل له إلا فى قلة المعرفة بالناصح من النمـام ، وهما صفتان متقاربتان فى الظاهر متفاوتتان فى الباطن ، إحداهما داء والأخرى دواء . والثاقب القريحة لا يخفى عليه أمرهما ، لـكن الناقل من كان تَنقيله غيرَ مرضىّ فى الديانة ، ونوى به التشتيت بين الأولياء ، والتضريب بين الإخوان ، والتحريش والتوبيش والترقيش . فمن خاف إن سلك طريق النصيحة أن يقـع فى طريق النميمة ، ولم يثق لنفاذ تمييزه ومضاء تقديره فيما يَرِده من أمور دنياه ومعاملة أهل زمانه ، فليجعل دينُه دليلاً له وسراجاً يستضىء به ، فحيثما سلك به سلك ، وحيثما أوقفه وقف . فشارع الشريعة وباعث الرسول عليه السلام ومرتب الأوامر والنواهى أعلم بطريق الحق وأدرى بعواقب السلامة ومغبّات النجاة من كل ناظر لنفسه بزعمه ، وباحث بقياسه فى ظنه .

باب الوصل

ومن وجوه العِشق الوصل ، وهو حظ رفيع ، ومرتبـــة سريّة ، ودرجة عالية ، وسعد طالع . بل هو الحياة المجدّدة ، والعيش السنىّ ، والسرور الدائم ورحمة من الله عظيمة . ولولا أن الدنيا دار مَمَرّ ومحنة وكدر ، والجنة دار جزاء وأمان من المـكاره ، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذى لا كَدَر فيـه ،

والفَرح الذى لا شائبة ولا حزن معه ، وكمال الأمانى ، ومنتهى الأراجى . ولقد جرّبت اللذات على تصرفها ، وأدركت الحظوظ على اُختلافها ، فما للدنوّ من السلطان ، ولا المال المُستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغَيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا التروّح على المال ، من الموقع فى النفس ، ما للوصل ؛ لا سيّما بعد طول الاُمتناع ، وحلول الهجر حتى يتأجج عليه الجوى ، ويتوقد لهيب الشوق ، وتتضرم نار الرجاء . وما أصناف النبات بعد غِبّ القطر ، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات فى الزمان السجسج ، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوار ، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر ، بأحسَن من وصل حَبيب قد رُضيت أخلاقه ، وحُمدت غرائزه ، وتقابلت فى الحسن أوصافه . وانه لمُعجز ألسنة البلغاء ، ومقصّر فيه بيان الفصحاء ، وعنده تطيش الألباب ، وتعزب الأفهام . وفى ذلك أقول :

وسائِل لِيَ عما لى من العُمر   وقد رأى الشيبَ فى الفَوْدين والعُذُر
أجبتُه ساعةً لا شىء أحسبُه   عُمْراً سواها بحُكم العقل والنظر
فقال لى كيف ذا بَيِّنْهُ لى فلقد   أخبرتنى أشنع الأنباء والَخبر
فقلتُ إن التى قَلبى بها عَلِقٌ   قَبَّلتها قُبلة يوماً على خَطر
فما أعُدّ ولو طالت سِنىّ سِوى   تلك السُّويعة بالتَّحقيق من عُمُرى

ومن لذيذ معانى الوصل المواعيد ، وإن للوعد المُنتظر مكاناً لطيفاً من شِغاف القلب ، وهو ينقسم قسمين ، أحدهما الوعد بزيارة المحب لمحبوبه . وفيه أقول قطعة ، منها :

أسامر البدرَ لمّا أبطأت وأرى   فى نوره من سَنا إشراقها عرَضا
فبِتّ مشترطاً والوُد مُختلطاً   والوَصل مُنبسطاً والهجر مُنقبضا

والثانى اُنتظار الوعد من المحب أن يزور محبوبه ، وإنّ لمبادى الوصل وأوائل الإسعاف لتولّجا على الفؤاد ليس لشىء من الأشياء . وإنى لأعرف من كان

مُمتحنا بهوى فى بعض المنازل المُصاقبة فكان يصل متى شاء بلا مانع ولا سبيل إلى غير النظر والمُحادثة زماناً طويلاً ، ليلاً متى أحب ونهاراً ، إلى أن ساعدته الأقدار بإجابة ، ومكّنته بإسعاد بعد يأسه ، لطول المدة . ولعهدى به قد كاد أن يختلط عقله فرحاً ، وما كاد يتلاحق كلامه سروراً ، فقلت فى ذلك :

برغبة لو إلى ربّى دعوتُ بها ... لكان ذنبىَ عند الله مغفورا

ولو دعوتُ بها أُسْد الفلا لَغَدا ... إضْرارها عن جميع الناس مَقصورا

فجاد باللثم لى من بعد مَنعته ... فاهتاج من لوعتى ما كان مَغْمورا

كشارب الماء كى يُطْفى الغليلَ به ... فغُص فانصاع فى الأجداث مقبورا

وقلت :

جَرى الُحب منّى مجرى النَّفس ... وأعطيت عينى عِنان الفَرس

ولى سيدٌ لم يزل نافراً ... ورُبّتما جاد لى فى الخِلَس

فقبّلته طالِباً راحة ... فزاد أليلاً[1] بقلبى اليبس

وكان فؤادى كنبتٍ هَشِيم ... يَبيس رمَي فيه رامٍ قبَس

ومنها :

ويا جَوهر الصِّين سُحْقاً فقد ... غَنيت بياقوتة الأندلس

خبر :

وإنى لأعرف جاريةً اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء ، وهو لاعلم عنده ، وكثر غمّها وطال أسفها إلى أن ضَنيتْ بحُبه ، وهو بغرارة الصّبى لا يشعر ، ويَمنعها من إبداء أمرها إليه الحياءُ منه ، لأنها كانت بكراً بخاتَمها ، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بمالا تدرى لعله لا يوافقه . فلما تمادى الأمر وكانا إلفين فى النشأة ، شكَت ذلك إلى امرأة جزلة الرأى كانت تثق بها لتولّيها تربيتها ، فقالت لها : عرِّضى له بالشعر . ففعلت المرةَ بعد المرة وهو لا يأبه فى كل هذا . ولقدكان لَقِناً

---

(١) أليلا : أنينا .

ذكيًا لم يظن ذلك فيميل إلى تنتيش الـكلام بوهمه ، إلى أن عِيل صبرُها وضاق صدرها ولم تُمسك نفسها فى قَعدة كانت لها معه فى بعض الليالى منفردَيْن ، ولقد كان يعلم الله عفيفاً مُتصاوناً بعيداً عن المعاصى ، فلما حان قيامها عنه بَدرت إليه فقبّلته فى فَمه ثم ولّت فى ذلك الحين ولم تـكلمه بكلمة ، وهى تتهادى فى مشيها ، كما أقول فى أبيات لى :

كأنهـا حين تخطو فى تأوّدها ... قضيبُ نَرْجسةٍ فى الرَّوض مَيّاس

كأنما خُـلدها فى قلبِ عاشقها ... ففيه من وَقْعها خَطْر ووسواس

كأنما مَشْيها مشى الحمامة لا ... كدٌّ يُعاب ولا بُطء به باس

فبُهت وسُقط فى يده وفُت فى عضده ووَجد فى كبده وعلَته وجمة ، فما هو إلا أن غابت عنه ووقع فى شَرَك الرَّدى واشتعلت فى قلبه النار وتصعدت انفاسه وترادفت أوجاله وكثر قلقه وطال أرقه ، فما غمض تلك الليلة عيناً ، وكان هـذا بدء الحب بينهما دهراً ، إلى أن جَذّت جملتهـا يدُ النوى . وإن هـذا لمن مصائد إبليس ودواعى الهوى التى لايقف لها أحد إلا من عصمه الله عز وجل .

ومن الناس من يقول : إن دوام الوصل يُودى بالحب ، وهذا هجين من القول ، إنما ذلك لأهل المَلَل ، بل كلما زاد وصلا زاد اتصالا .

وعنى أخبرك أنى ماروِيتُ قط من ماء الوصل ولا زادنى إلا ظمأ . وهـذا حكم مَن تداوى برأيه وإن ر به عنه سريعا . ولقد بلغتُ من التمـكّن بمن أُحب أبعد الغايات التى لايجد الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدتُنى إلا مستزيداً ، ولقد طال بى ذلك فما أحسست بسآمة ولا رهقتنى فترة ، ولقد ضمّنى مجلس مع بعض من كنتُ أُحب فلم أُجل خاطرى فى فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصراً عن مرادى وغير شافٍ وُجْدى ولا قاضٍ أقلّ لُبانة من لباناتى ، ووجدتُنى كلما ازددتُ دنوًّا ازددتُ ولوعا ، وقدحتْ زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى، فقلت فى ذلك المجلس :

وَدِدْت بأنّ القلبَ شُق بمُدية   وأُدخلتِ فيه ثم أُطبق فى صَدْرِى
فأَصبحتِ فيه لاتحلين غيرَه   إلى مُقْتَضى يوم القيامة والَحشْر
تَعيشين فيه ماحييتُ فإن أمتْ   سكنت شغاف القلبِ فى ظُلَمِ القبر

وما فى الدنيا حالة تَعدل محبّين إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وسلما من الُبين ، ورغبا عن الهجر ، وبَعُدا عن الملل ، وفقدا العذّال ، وتوافقا فى الأخلاق ، وتكافيا فى المحبة ، ، وأتاح الله لهما رزقاً دارّا ، وعيشاً قارّا ، وزماناً هادياً ، وكان اجتماعُهما على مايرضى الربّ من الحال ، وطالت صُحبتهما واُتصلت إلى وقت حُلول الحِمامِ الذى لامردّ له ولا بد منه ، هذا عطاء لم يحصُل عليه أحد ، وحاجة لم تُقْض لكل طالب ، ولولاأن مع هذه الحال الإشفاق من بَغتات المقادير المحكمة فى غيب الله عز وجل ، من حُلول فراق لم يكتسب ؛ واخترام منية فى حال الشباب أو ما أشبه ذلك ، لقلت إنها حال بعيدة من كل آفة ، وسليمة من كل داخلة . ولقد رأيت مَن اجتمع له هذا كُله إلا أنه كان دُهى فيمن كان يحبه بشَراسة الأخلاق ، ودالّة على المَحبة ، فكانا لايتهنَّيان العيش ولا تطلع الشمس فى يوم إلا وكان بينهما خلاف فيه ، وكلاهما كان مطبوعاً بهذا الُخلق . لثقة كل واحد منهما بمحبة صاحبه ، إلى أن دنت النَّوى بينهما فتفرّقا بالموت المرتَّب لهذا العالم ، وفى ذلك أقول :

كيف أذُمّ النوى وأظلمها   وكُل أخلاق من أُحب نَوى
قد كان يَكْفى هوى أضيق به   فكيف إذ حَلَّ بي نوىً وهوى

وروى عن زِياد بن أَبى سفيان رحمه الله أنه قال لُجلسائه : من أنعم الناس عيشة ؟ قالوا : أمير المؤمنين . فقال : وأين مايلقى من قريش ؟ قيل : فأَنت . قال : أين ما ألقى من الخوارج والثغور ؟ قيل : فمن أيها الأمير . قال . رجل مُسلم له زوجة مسلمة لهما كفاف من العيش قد رضيت به ورضى بها لايَعرفنا ولا نعرفه .

وهل فيما وافق إعجاب المخلوقين ، وجلا القلوب ، واستمال الحواس ، واستهوى النفوس ، واستولى على الأهواء ، واقتطع الألباب ، واختلس العقول، مستحسن يعدل إشفاق مُحب على محبوب . ولقد شاهدت مِن هذا المعنى كثيراً ، وإنه لمن المَناظر العجيبة الباعثة على الرقّة الرائقة المعنى لا سيما إن كان هوى يتكتم به . فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضبه بمُحبه ، وخجلته فى الخروج مما وقع فيه بالاُعتذار ، وتوجيهه إلى غير وجهه ، وتحيله فى استنباط معنى يُقيمه عند جلسائه ، لرأيت عجباً ولذة مخفية لا تقاومها لذة ، وما رأيت أجلب للقلوب ولا أغوص على حياتها ولا أنفذ للمقاتل من هذ الفعل . وإن للمُحبين فى الوصل من الاعتذار ما أعجزَ أهلَ الأذهان الذكيّة والأفكار القوية . ولقد رأيت فى بعض المرات هذا فقلت :

إذا مزجتَ الحقَّ بالباطلِ ۝ جوَّزت ماشئت على الغافلِ
وفيهما فَرق صحيحٌ له ۝ علامةٌ تَبدو إلى العاقل
كالتِّبْر إن تمزّج به فِضَّةً ۝ جازت على كل فتًى جاهل
وإن تُصادف صائغاً ماهراً ۝ مَيَّز بين المحض والحائل

وإنى لأعلم فتى وجارية ، كان يكلف كل واحد منهما بصاحبه ، فكانا يَضطجعان إذا حضرهما أحد وبينهما المُسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفُرش . ويلتقى رأساهما وراء المسند ويُقبّل كل واحد منهما صاحبه ولا يُريان ، وكأنهما إنما يتمدّدان من الكلل . ولقد كان بلغ من تكافئهما فى المودة أمراً عظيماً ، إلى أن كان الفتى المُحب ربما استطال عليها . وفى ذلك أقول :

ومن أعاجيب الزمان التى ۝ طَمّت على السامع والقائل
رَغبة مَرْكوب إلى راكب ۝ وذِلّة المسؤول للسائل
وطَوْل مأسور إلى آسر ۝ وصَولة المَقتول للقاتل

ما إن سمعنا فى الورى قبلها خضوعَ مأمول إلى آمل
هل هاهنا وجه تراه سِوَى تواضع المَفعول للفـــاعل

ولقد حدّثتنى امرأة أثق بها أنها شاهدت فتى وجارية كان يَجد كل واحدمنهما بصاحبه فضل وَجْد ، قد اجتمعا فى مكان على طَرب ، وفى يد الفتى سِكّين يقطع بها بعض الفَواكه ، فجرّها جراً زائداً فقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ظهر فيه دم ، وكان على الجارية غلالة قَصب خَزائنية لها قيمة ، فصرفت يدها وخرقتها وأخرجت منها فضلة شدّ بهـا إبهامه . وأما هذا الفعل للمُحب فقليل فيما يجب عليه ، وفرض لازم وشريعة مؤداة ، وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدها .

خبر :

وأنا أدركت بنت زكريا بن يحيي التَّميمى المعروف بابن برطال ، وعمها كان قاضى الجماعة بقُرطبة محمد بن يحيي ، وأخوه الوزير القائد الذى كان قتله غالب وقائدين له فى الوقعة المشهورة بالثغور ، وهما مروان بن أحمـد بن شهيد ويوسف ابن سعيد العكى ، وكانت متزوجة بيحيي بن محمد ابن الوزير يحيي بن إسحاق ، فعاجلته المنية وهو فى أغض عيشه وأنضر سرورهما ، فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه فى دِثار واحد ليلة مات وجعلته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها .

وإن للوصل المختلس الذى يُخاتل به الرقباء ويتحفّظ به من الحُضّر ، مثل الضحك المستور ، والنحنحة ، وجولان الأيدى ، والضغط بالأجناب ، والقرص باليد والرجل ، لموقعاً من النفس شهيّا . وفى ذلك أقول :

إن للوصل الخفى محلاً ليس للوصل المكين الجلىّ
لذة أمرها بارتقـاب كمسير فى خلال النقى

خبر :

ولقد حدثنى ثقة من إخوانى جليـل من أهل البيوتات أنه كان عَلق فى

صباه جارية كانت فى بعض دُور آله ، وكان ممنوعا منها فهام عقله بها . قال لى : فتنزهنا يوماً إلى بعض ضياعنا بالسهلة غربىّ قرطبة مع بعض أعمامى ، فتمشّينا فى البساتين وأبعـدنا عن المنازل وانبسطنا على الأنهار . إلى أن غيمت السماء وأقبل الغيث ، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يكفى الجميع . قال: فأمر عمى ببعض الأغطية فأُلقى علىّ وأمرها بالاكتنان معى ، فظن بما شئت من التمكن على أعين الملأ وهم لا يشعرون ، ويالك من جمع كخَلاء ، واحتفال كانفراد . قال لى : فوالله لا نسيت ذلك اليوم أبدا . ولعهدى به وهو يحدثنى بهذا الحديث وأعضاؤه كلها تضحك وهو يهتز فرحاً على بعـد العهد وامتداد الزمان . ففى ذلك أقول شعراً ، منه :

يَضحك الروضُ والسحائبُ تبكى   كحبيبٍ رآه صَبٌّ مُعَنّى

ضهر :

ومن بديع الوصل ما حدّثنى به بعض إخوانى أنه كان فى بعض المنـازل المُصاقبة له هوى ، وكان فى المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر ، فكانت تقف له فى ذلك المَوضع ، وكان فيه بعضُ البُعد ، فتسلم عليه ويدها ملفوفة فى قميصها . فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك . فأَجابته : إنه ربما أحس من أمرنا شىء فوقف لك غيرى فسلّم عليك فرددتَ عليه ، فصح الظن ، فهذه علامة بينى وبينك فإذا رأيت يداً مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدى فلا تجاوب .

وربما استُحلي الوصال واُتفقت القلوب حتى يقع التخاج فى الوصال ، فلا يلتفت إلى لائم ولا يستتر من حافظ ولا يبالى بناقل ، بل العـــذل حينئذ يُغرى . وفى صفة الوصل أقول شعراً ، منه :

كم دُرت حول اُلحب حتى لقد   حَصات فيـه كحُصول الفَراِش

ومنه :

تَعشو إلى الوصل دواعى الهَـوى   كما سَرى نحو سَنا النـارَ عاش

ومنه : عَلَّلني بالوَصل من سَيِّدى كمِثل تَعليل الظِّماء العِطاش

ومنه

لا توَقف العـــينَ على غاية فالُحسن فيه مُستزيد وباشِ(١)

وأقول من قصيدة لى :

هل لقتيل الحب من وادى أم هل لعانى الُحب من فادِى
أم هل لدهرى عودةٌ نحوها كمثل يوم مَرّ فى الوادِى
ظللْت فيه سابحاً صادياً يا عجباً للسابح الصادى
ضَنيت يا مولاى وجداً فما تُبصرنى ألحاظ عُوَّادى
كيف اُهتدى الوجد إلى غائب عن أعين الحاضر والبادى
مَلّ مداواتى طبيبى فقد يرحمنى للسُّقم حُسَّادى

باب الهجر

ومن آفات الحُب أيضاً الهجر ، وهو على ضروب : فأولها هجر يُوجبه تحفظ من رقيب حاضر ، وإنه لأحْلى من كل وصل ، ولولا أن ظاهر اللفظ وحكم التسمية يُوجب إدخاله فى هذا الباب لرجعت به عنه ولأَجْللته عن تسطيره فيه . فحينئذ ترى الحبيب مُنحرفاً عن مُحبه مقبلاً بالحديث على غيره مُعرضاً بمعرض لئلا نلاحق ظنته أو تسبق اُستزابته . وترى المحب أيضاً كذلك ، ولكنّ طبعه له جاذب ، ونَفسه له صارفة بالرغم ، فتراه حينئذ مُنحرفاً كمُقبِل ، وساكتاً كناطق ، وناظراً إلى جهة نفسه فى غيرها . والحاذق الفطن إذا كَشف بوهمه عن باطن حديثهما عَلِمَ أن الخافى غير البـــادى ، وما جَهَر به غير نفس الخَبر ، وأنه لمن المَشاهد الجالبة للفِتن والمناظر المحركة للسواكن الباعثة للخواطر المهيجة للضمائر الجاذبة للفتوة . ولى أبيات فى شىء من هذا أوردتها . وإن كان فيها غير هـذا المعنى على ما شرطنا ، منها :

---

(١) كذ فى الأصل .

يلوم أبو العبّاس جهلاً بطَبعه كما عيّر الحوتُ النعامةَ بالصَّدَى

ومنها :

وكم صاحبٍ أكرمتُه غيرَ طائع ولا مُكْرَه إلا لأمر تعمَّدا
وما كان ذاك البرّ إلا لغيره كما نَصبوا للطير بالحَب مِصْيدا

وأقول من قصيدة محتوية على ضروب من الحِكَم وفنون من الآداب الطبيعية :

وسَرّاء أحشائى لمن أنا مُؤثر وسَراء أبنائى لمن أتحبّب
فقد يُشرب الصابُ الكريهُ لعلّة ويُترك صَفوُ الشُّهد وهو مُحَبَّب
وأعدل فى إجهاد نَفْسى فى الذى أُريد وإنى فيه أشقَى وأتعب
هل اللؤلؤ المكنون والدُّر كُله رأيتَ بغير الغوص فى البحر يُطلب
وأصرف نفسى عن وجُوه طِباعها إذا فى سواها صَحّ ما أنا أرغب
كما نَسخ الله الشرائعَ قبلنا بما هو أدنى للصلاح وأقرب
وألقى سَجايا كُل خَلْق بمثلها ونَعت سجاياى الصّحيح المهذب
كما صار لونُ الماء لونَ إنائه وفى الأصل لونُ الماء أبيض معجب

ومنها :

أقمتُ ذَوى وُدّى مُقام طَبائعى حياتى بها والموتُ منهن يَرهب

ومنها :

وما أنا ممّن تَطَّبيه(١) بَشاشةٌ ولا يَقْتضي ما فى ضميرى التجنُّبُ
أَزيد نِفاراً عنـد ذلك باطناً وفى ظاهرى أهلٌ وسَهل ومَرحب
فإنى رأيتُ الحَرب يَعلو اشتعالها ومَبدؤها فى أول الأمر مَلْعب
وللحَيّة الرّقشاء وَشْيٌ ولونُها عَجيب وتحت الوَشْى سُمّ مركّب
وإنّ فِرنْد السَّيف أعجبُ منظراً وفيه إذا هُزّ الحِمام المُذَرَّب
وأجعَلُ ذُلّ النفس عِزّة أهلها إذا هى نالتْ ما بها فيه مَذْهب

(١) تطبيه ، أى تختله وتخدعه .

فقد يَضع الإنسان فى الترب وَجهه ليأتى غداً وهو المَصون المقرَّب

فذُلٌ يَسوق العِزّ أجودُ لِلفتى من العِزّ يَتلوه مِن الذُّل مَرْكب

وكم ما كل أربتْ عواقبُ غَيِّه ورُبَّ طَوًى بالخِصْب آتٍ ومُعْقب

وماذاق عِزّ النَّفس مَن لا يُذِلّها ولا التذّ طَعم الرَّوح مَن ليس يَنْصَب

وُرودك نَهل الماء من بعد ظَمأة ألذّ من العَلّ المكين وأعذب

ومنها :

وفى كل مَخلوق تراه تفاضُلٌ فردْ طَيِّبا إن لم يُتح لك أطيب

ولا تَرْضُ وِرْد الرِّيق إلا ضَرورة إذا لم يكن فى الأرض حاشاه مَشْرب

ولا تقربن مِلح المِياه فإنها شَجًى والصدَى بالحر أولى وأوجب

ومنها :

فخذ مِن جرَاها ما تيسّر واُقتنع ولا تَكُ مشغولاً بمن هو يَغْلب

فما لك شَرْط عندها لا ولا يَدٌ ولا هِيَ إن حَصّلت أمٌّ ولا أب

ومنها :

ولا تيأَسَن مما يُنال بحيلةٍ وإن بَعُدت فالأمر يَنأى ويَصْعُب

ولا تأمنِ الإظلامَ فالفجر طالعٌ ولا تَلْتبس بالضوء فالشَّمس تَغْرُب

ومنها :

أَلِحَّ فإن الماء يَكدَحُ فى الصّفا إذا طال ما يأتى عليه ويَذْهب

وكَثِّرْ ولا تَفشل وقلِّل كثيرَ ما فعلتَ فماء المُزن جَمٌّ ويَنْضُبُ

فلو يتغذَّى المرء بالشُّم قاتَه وقام له منه غِذاء مُجرَّب

ثم هَجْر يُوجبه التذلّل ، وهو ألذ من كثير الوصال ، ولذلك لا يكون إلا عن ثِقة كُل واحد من المتحابِّين بصاحبه ، واُستحكام البصيرة فى صحة عَقده ، فحينئذ يُظهر المحبوب هِجراناً ليرى صبر مُحبه ، وذلك لئلاّ يصفو الدهر البتة ، وليأسف المحب إن كان مُفرط العشق عند ذلك لا لما حلّ ، لكن مخافة أن يترقَّى الأمر

إلى ما هو أجلّ ، يكون ذلك الهجر سبباً إلى غـيره ، أو خوفاً من آفة حادث ملل . ولقد عرض لى فى الصبا هجر مع بعض من كنت آلف ، على هذه الصفة وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود . فلما كثر ذلك قلتُ على سبيل المزاح شعراً بديهياً ختمتُ كل بيت منه بقسم من أول قصيدة طرفة بن العبد المعلقة ، وهى التى قرأناها مشروحة على أبى سعيد الفتى الجعفرى عن أبى بكر المقرىء عن أبى جعفر النحاس ، رحمهم الله ، فى المسجد الجامع بقرطبة ، وهى :

تذكّرت وُدًّا للحبيب كأنه ... لخَولة أطلالٌ ببُرقة ثَهمدِ
وعَهدى بعهد كان لى منه ثابتٍ ... يلوح كباقى الوَشْم فى ظاهر اليد
وقفت به لا مُوقناً برجوعه ... ولا آيساً أبكى وأبكى إلى الغد
إلى أن أطال الناس عَذْلى وأكثروا ... يقولون لا تَهْلِك أسًى وتجلَّد
كأن فُنونَ السُّخط ممن أحبـه ... خـلايا سَفين بالنواصف من دَد
كأنّ انقلاب الهجر والوصل مَرْكب ... يجور به الملاَّح طَوراً ويهتـدى
فوقْت رضًى يتلوه وَقت تسخّط ... كما قَسَم التُّرب المفايل باليـــد
ويَبسم نحوى وهو غَضبان مُعرِض ... مُظاهر سِمْطَى لؤلؤ وزَبَرْجد

ثم هَجْر يُوجبـه العِتاب لذ نب يقع من المحب ، وهـذا فيه بعضُ الشدة ، لـكن فرحة الرجعة وسُرور الرضى يعدل مامضى ، فإن لرضى المَحبوب بعد سخطه لذةً فى القلب لاتعدلها لذة ، وموقفاً من الروح لا يفوقه شىء من أسباب الدنيا . وهل شاهد مُشاهد أو رأت عين أو قام فى فـكرٍ ألذُّ وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب ، وبَعُد عنه كل بغيض ، وغاب عنه كل واش ، واجتمع فيـه محبّان قد تصارما لذنب وَقع من المحب منهما وطال ذلك قليـلاً ، وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثمَّ مانع من الإطالة للحديث ، فابتدأ المُحب فى الأعتـذار والخضوع والتـذلّل والأدلّة بحجته الواضحة من الإدلال والإذلال والتذمم بمـا سلف ، فطوراً يدلى ببراءته ، وطوراً يردّ بالعفو ويستدعى المغفرة ويقر بالذّنب

ولا ذنب له ، والمحبوب فى كل ذلك ناظر إلى الأرض يُسارقه اللحظ الخفى ، وربما أدامه فيه ثم يبسم مخفياً لتبسمه ، وذلك علامة الرضى . ثم ينجلى مجلسهما عن قبول العذر ، ويقبل القول ، وامتحت ذنوب النقل ، وذهبت آثار السخط ، ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور ، ولو كان فكيف ولا ذنب ، وختما أمرها بالوصل الممكن وسُقوط العتاب والإسعاد وتفرقا على هذا .

هذا مكان تَتقاصر دونه الصفات وتتلكّن بتحديده الألسنة . ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدتُ محاضر الملوك فما رأيتُ هيبة تعدل هيبة مُحب لمحبوبه ، ورأيت تمكّن المتغلبين على الرؤساء وتحكّم الوزراء ، وأنبساط مدبرى الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن ان قلب محبوبه عنده ووثق بميله إليه وصحة مودته له .

وحضرت مقام المعتذرين بين أيدى السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف مُحب هَيمان بين يدى مَحبوب غضبان قد غَمره السخط وغلب عليه الجفاء . ولقد أُمتحنت الأمرين وكنت فى الحالة الأولى أشدّ من الحديد وأنفذ من السيف ، لا أجيب إلى الدنية ، ولا أساعد على الخضوع ، وفى الثانية أذل من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل ، وأغتنم فُرصة الخضوع لو نجع ، وأتحلّل بلسانى ، وأغوص على دقائق المعانى ببيانى ، وأفنن القول فنوناً ، وأتصدى لكل ما يوجب الترضى .

والتجنى بعضُ عوارض الهجران ، وهو يقع فى أول الحب وآخره ، فهو فى أوله علامة لصحّة المحبة ، وفى آخره علامة لفتورها وباب للسلو .

خبر :

وأذكر فى مثل هذا أنى كنت مجتازاً فى بعض الأيام بقُرطبة فى مقبرة باب عامر فى لُمّة من الطلاب وأصحاب الحديث ، ونحن نريد مجلس الشيخ أبى القاسم

عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري بالرصافة أستاذي رضي الله عنه ، ومعنا أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوي من أهل سبتة ، وكان شاعراً مفلقاً وهو ينشد لنفسه فى صفة متجنٍّ معهود أبياتاً له ، منها :

سَريع إلى ظَهر الطريق وإنه إلى نَقض أسباب المودّة يسرع
يَطُول عَلينا أن نُرقِّع وُدّه إذا كان فى تَرقيعه يتقَطّع

فوافق إنشاد البيت الأول من هـذين البيتين خطور أبي الحسين بن على الفاسى رحمه الله تعالى وهو يؤم أيضاً مجلس ابن أبي يزيد ، فسمعه فتبسم رحمه الله نحونا وطوانا ماشياً وهو يقول : بل إلى عقد المودة إن شاء الله ، فهو أولى . هذا على جِد أبي الحسين رحمه الله وفضـله وتقرّبه وبراءته ونسكه وزهده وعلمه . فقلت فى ذلك :

دَعْ عنـك نَقْض مودتى مُتعمِّداً واُعقِد حِبالَ وصالنا ياظالمُ
ولترجعنّ أردْتَه أو لم تُرِد كُرهاً لمـا قال الفقيه العالم

ويقع فيه الهجر[1] والعتاب . ولعمرى إن فيه إذا كان قليلاً للذة ، وأما إذا تفاقم فهو فأل غير محمود ، وأمارة وبيئة المصـدر ، وعلامة سوء ، وهي بجملة الأمر مطية الهجران ، ورائد الصريمة ، ونتيجة التجنى ، وعنوان الثقل ، ورسول الانفصال ، وداعية القلى ، ومقدّمة الصد ، وإنما يستحسن إذا لَطُف وكان أصله الإشفاق . وفى ذلك أقول :

لعلَّك بعد عَتبِك أن تجُودا بما منه عتبتَ وأن تَزِيدا
فـكم يومٍ رأينا فيه صَحْواً وأسمعنا بآخِره الرُّعودا
وعاد الصَّحو بعدُ كما عَلِمنا وأنت كذاك نَرجوأن تعودا

وكان سبب قولى هذه الأبيات عِتاب وقع فى يومٍ هذه صفتهُ من أيام الربيع فقلتُها فى ذلك الوقت ، وكان لى فى بعض الزمن صديقان وكانا أخوين فغابا فى

---

(١) فيه : أى فى التجنى .

سفر ثم قَدِما ، وقد أصابنى رَمَد فتأخّرا عن عيادتى ، فـكتبتُ إليهما ، والمخاطبة للأكبر منهما ، شعراً منه :

وكنتُ أعَدِّد أيضاً على ... أخيك بمؤلمة السَّامع
ولكنْ إذا الدَّجْن غطّى ذُكا ... ء فما الظَّن بالقَمر الطالع

ثم هجر يُوجبه الوُشاة ، وقد تقدم القول فيهم وفيما يتولد من دبيب عقاربهم ، وربما كان سبباً المقاطعة البتة .

ثم هجر الملل ، والملل من الأخلاق المطبوعة فى الإنسان ، وأحرى لمن دُهى به ألا يصفو له صديق ، ولا يَصح له إخاء ، ولا يثبت على عهد ، ولا يصبر على إلف ، ولا تطول مُساعدته لمحب ، ولا يعتقد منه وُد ولا بغض . وأولى الأمور بالناس ألاّ يغروه منهم وأن يفروا عن صحبته ولقائه . فلن يظفروا منه بطائل ، ولذلك أبعدنا هذه الصفة عن المُحبين وجعلناها فى المحبوبين ، فهم بالجملة أهل التجنى والتظنّى . والتعرض للمقاطعة . وأما من تزيّا باسم الحُب وهو مَلُول فليس منهم ، وحقّه ألا يتجرع مذاقه ، ويُنفى عن أهل هذه الصفة ولا يدخل فى جملتهم .

وما رأيت قط هذه الصفة أشد تغلباً منها على أبى عامر محمد بن عامر رحمه الله ، فلو وصف لى واصف بعضَ ماعلمتُه منه لما صدقتُه . وأهل هذا الطبع أسرع الخلق محبةً ، وأقلّهم صبراً على المحبوب وعلى المكروه والصد ، وانقلابهم على الودّ على قدر تسرعهم إليه . فلا تثِق بملول ولا تَشغل به نفسك ، ولا تُعنها بالرجاء فى وفائه . فإن دُفعت إلى محبته ضرورةً فعُدَّه ابنَ ساعته ، واُستأنفه كُل حين من أحيانه بحسب ما تراه من تلوّنه ، وقابله بما يشاكله . ولقد كان أبو عامر المُحدَّث عنه يرى الجاريةَ فلا يَصبر عنها ، ويُحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتى عليه حتى يملكها ، ولو حال دون ذلك شوكُ القتاد ، فإذا أيقن بتصيُّرها إليه عادت المحبة نفاراً ، وذلك الأنس شُروداً ، والقلق إليها قلقاً منها ، ونزاعه نحوها نزاعاً

عنها ، فيبيعها بأوكس الأثمان . هذا كان دأبه حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عدداً عظيما ، وكان رحمه الله مع هذا من أهل الأدب والحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقّد ، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض . وأما حسن وجهه وكمال صُورته فشيء تقف الحدود عنه وتَكِلّ الأوهام عن وصف أقله ولا يتعاطى أحد وصفه . ولقد كانت الشوارع تخلو من السيّارة و يتعمدون الخطور على باب داره فى الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا فى الجانب الشرقى بقُرطبة إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة ، وفى هذا الدرب كانت داره رحمه الله ملاصقة لنا ، لالشيء إلا للنظر منه . ولقد مات من محبّته جوارٍ كُنّ علّقْن أوهامهن به ، ورثين له فخانهن مما أملنه منه ، فصرن رهائن البِلَى وقتلتهنّ الوُحدة .

وأنا أعرف جارية منهن كانت تُسمى عفراء ، عهدى بها لاتتستر بمحبته حيثما جلست ، ولا تجف دموعها ، وكانت قد تصيرت من داره إلى البركات الخيّال صاحب الفتيان . ولقد كان رحمه الله يُخبرنى عن نفسه انه يمل اسمه فضلا عن غير ذلك .

واما إخوانه فإنه تبدّل بهم فى عُمره على قِصَره مراراً ، وكان لايثبُت على زى واحد كأبى بَراقش ، حيناً يكون فى ملابس المُلوك وحيناً فى ملابس الفتّاك .

فيجب على من امتُحن بمخالطة مَن هذه صفته على أى وجه كان ألاّ يستفرغ عامة جُهده فى محبّته ، وأن يُقيم اليأس من دوامه خَصماً لنفسه ؛ فإذا لاحت له مخايل المَلل قاطعه أياماً حتى ينشط بالُه ، و يبعد به عنه ، ثم يُعاوده ، فربما دامت المودّة مع هذا . وفى ذلك أقول :

لاتَرجُونّ مَلُولاَ ليس المَلول بُعدّه
وُدّ المَلول فدَعْهُ عاريَة مُستردّه

ومن الهَجر ضَرب يكون متولّيه المحب ، وذلك عندما يرى من جَفاء محبو به والميل عنه إلى غيره ، أو لثقيـل يلازمه ، فيرى الموت و يتجرّع غُصص الأسى ، والعَضّ على نقيف[1] الحنظل أهون من رؤية ما يكره ، فينقطع و كبده تتقطع ، وفى ذلك أقول:

هجرتُ من أهواه لاعن قِلى　　ياعجبـاً للعاشق الهاجِرِ
لـكنّ عينى لم تُطِق نظرة　　إلى مُحيّا الرَّشـأ الغـادر
فالموتُ أحلى مَطْعماً من هَوًى　　يُبـاح للوارد والصـادر
و فى الفؤاد النار مَذْكيّة　　فاعجب لصَبٍّ جَزِع صابر
وقد أباح الله فى دِينه　　تَقيّـة المأسـور للآسر
وقد أحلّ الـكُفر خوفُ الرّدى　　حتى تَرى المؤمن كالـكافر

خبر :

ومن عجيب مايكون فيها وشنيعه أنى أعرف مَن هام قلبهُ بمتناء عنه نافر منه ، فقاسى الوجد زمناً طو يلا ، ثم سَنحت له الأيام بسانحة عجيبة من الوصل أشرف بها على بلوغ أَمله ، فحين لم يكُن بينه و بين غاية رجائه إلا كهؤلاء عاد الهَجر والبعد إلى أ كثر ما كان قبل . فقلت فى ذلك :

كانت إلى دهرىَ لِى حاجةٌ　　مقرونةٌ فى البُعد بالمُشترِى
فساقها باللُّطف حتى إذا　　كانت من القُرب على مَحْجِر
أَبْعدها عنِّى فعادت كأنْ　　لم تَبْدُ للعين ولم تَظهر

وقلت :

دنا أملى حتي مددتُ لأخـذه　　يَدًا فانثنَى نحو المَجرّة راحـلاَ
فأصبحتُ لاأرجو وقد كنتُ مُوقناً　　وأُضحى مع الشِّعرى وقدكان حاصلا

---

(١) نقيف الحنظل : ما شق عن حبه .

وقد كُنت محسوداً فأصبحت حاسِداً وقد كنت مَأمولا فأصبحت آملا

كذا الدهرُ فى كَرَّاته وأنتقاله فلا يأمننّ الدهرَ مَن كان عاقلا

ثم هَجْر القِلَى ، وهنا ضلّت الأساطير ونفدت الحِيل وعظم البلاء ؛ وهو الذى خلّى العقولَ ذواهلَ ، فمن دُهي بهذه الداهية فليتصدَّ لمحبوب محبو به ، وليتعمد مايعرف أنه يستحسنه . و يجب أن يجتنب مايدرى أنه يكرهه ، فر بما عَطفه ذلك عليه إن كان المحبوب ممن يدرى قدر المُوافقة والرغبـة فيه ، وأما من لم يعلم قدر هذا فلا طَمع فى أستصرافه ، بل حسناتك عنده ذنوب . فإن لم يقدر المرء على استصرافه فليتعمّد السُّلوان وليحاسب نفسه بما هو فيه من البلاء والحرمان ، ويسعى فى نَيل رغبته على أى وجه أمـكنه . ولقد رأيتُ مَن هـذه صفته ، و فى ذلك أقول قطعة أولها :

دُهيت بمن لو أدفع الموتَ دونه لقـال إذًا ياليتنى فى المَقابر

ومنهـا :

ولاذنبَ لى إذ صرتُ أحدو ركائبى إلى الورْد والدُّنيا تُسِيءُ مَصادرى

وماذا على الشمس المُنيرة بالضُّحى إذا قَصُرت عنها ضِعاف البصائر

وأقول :

ما أقبحَ الهَجرَ بعد وَصْلٍ وأحسنَ الوصلَ بعد هجر

كالوَفْر تحويه بعـد فَقر والفقْرِ يأتيك بعد وَفر

وأقول :

مَعهود أخلاقك قسْمان والدهرُ فيك اليوم صِنْفان

فإنك النُّعمان فيما مَضى وكان للنُّعمان يومان

يومُ نَعيم فيه سَعد الوَرى ويومُ بَأْسَاء وعُدوان

فيومُ نُعماك لغيرى ويو مى منك ذو بُؤس وهِجْران

أليس حُبى لك مُستاهلا لأن تُجازيه بإحسان

وأقول قطعة منها :

يامَن جميعُ الُحسنِ مُنتظم فيه كَنظْم الدرّ فى العقْد
ما بال حَتْفى منك يطْرُقنى قَصْداً ووجهُك طالعُ السَّعد

وأقول قصيدة أولها :

أساعةُ تَوْديعك أم ساعةُ الْحَشْر وليلةُ بَيْنى منك أم ليلة النَّشر
وهجرك تَعْذيب الموحِّد ينْقضى ويرجو التلاقي أم عذاب ذوى الكفر

ومنها :

سقَى الله أياماً مضتْ ولياليـاً تُحاكى لنا النَّيلوفَرَ الغَض فى النَّشر
فأَوراقه الأيام حُسناً وبهجةً وأوسطه الليلُ المُقصِّر للعُمر
لهَونا بهـا فى غَمرة وتآلف تمرُ فلا نَدْرى وتأْتى فلا ندرى
فأعْقبنا منـه زمانٌ كأنه ولا شكّ حُسن العقد أعقب بالغَدر

ومنهـا :

فلا تيأَسِي يا نَفْس علّ زمانَنـا يَعُود بوجه مُقْبل غير مُدْبر (١)
كما صَرف الرحمنُ مُلك أمية إليهم ولُوذى بالتجمّل والصَّبر

وفى هذه القصيدة أمدح أبا بكر هشام بن محمد أخا أمير المؤمنين عبد الرحمن المرتضى رحمه الله .

فأقول :

أليس يُحيط الرُّوح فينا بكُل ما دناَ وتَناءى وهو فى حُجُب الصَّدر
كذا الدهرُ جِسْم وهو فى الدّهر رُوحه مُحيط بما فيه وإِن شئت فاسْتقر

ومنهـا :

إتاوتها تهـدى إليه ومِنّة تَقَبُّلها منهم يقاوم بالشُّكر
كذا كل نهر فى البلاد وان طمت غَزارته ينصبّ فى لُجج البَحر

---

(١) كذا في الأصل .

باب الوفاء

ومن حميد الغرائز وكريم الشِّيم وفاضل الأخلاق فى الُحب وغيره الوفاء ، وإنه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طِيب الأصل وشَرف العُنصر ، وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات . وفى ذلك أقول قطعة منها :

أفعالُ كل امرئٍ تُنْبِي بعُنصره والعينُ تُغنيك عن أن تطلُب الأثرا

ومنها :

وهل ترَى قطُّ دِفْلى أنبتت عِنباً أو تَدْخر النحل فى أوكارها الصَّبِرا

وأول مراتب الوفاء أن يفى الإنسان لمن يفى له ، وهذا فرض لازم وحق واجب على الُمحب والمحبوب ، لا يحول عنه إلا خبيث المحتد لا خَلاق له ولا خير عنده . ولولا أن رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام فى أخلاق الإنسان وصفاته المطبوعة والتطبّع بها ، وما يزيد من المطبوع بالتطبع وما يضمحل من التطبع بعدم الطبع ، لزدتُ فى هذا المكان ما يجب أن يُوضع فى مثله ، ولكنا إنما قصدنا التكلم فيما رغبتهُ من أمر الحب فقط . وهذا أمر كان يطول جدًّا إذ الكلام فيه يتفنن كثيراً .

خبر :

ومن أرفع ما شاهدته من الوفاء فى هذا المعنى وأهوله شأناً قصَّة رأيتها عياناً ، وهو أنى أعرف مَن رَضِى بقطيعة محبوبه وأعزّ الناس عليه ، ومن كان الموت عنده أحلى من هجر ساعة فى جَنب طيّه لسر أودعه ، والتزم محبوبه يميناً غليظة ألَّا يكلمه أبداً ولا يكون بينهما خبر أو يفضح إليه ذلك السر . على أن صاحب ذلك السر كان غائباً فأبى من ذلك وتمادى هو على كتمانه والثانى على هجرانه إلى أن فرقت بينهما الأيام .

ثم مرتبة ثانية وهو الوفاء لمن غَدر ، وهى للمُحب دون المحبوب ، وليس للمحبوب ها هنا طريق ولا يلزمه ذلك ، وهى خُطة لا يُطيقها إلا جَلْد قوىّ واسع الصدر

حر النفس عظيم الحِلْم جليل الصبر حَصيف العقل ماجد الخلق سالم النية . ومن قابل الغدر بمثله فليس بمُستأهل للملامة ، ولكن الحال التى قدمنا تفوقها جدًّا وتفوتها بعداً . وغاية الوفاء فى هذه الحال تركُ مكافأة الأذى بمثله ، والكف عن سيىء المعارضة بالفعل والقول ، والتأنى فى جر حَبل الصحبة ما أمكن ، ورُجيت الألفة ، وطُمع فى الرجعة ، ولاحت للعودة أدنى مخيلة ، وشيمت منها أقل بارقة ، أو تُوجس منها أيسر علامة . فإذا وقع اليأس واستحكم الغيظ حينئذ والسلامة من غرّك والأمن من ضرّك والنجاة من أذاك ، وأن يكون ذكر ما سلف مانعاً من شفاء الغيظ فيما وقع ، فرَعْى الأذمة حق وَكيد على أهل العقول ، والحنين إلى ما مضى وألا ينسى ما قد فرغ منه وفنيت مدته أثبت الدلائل على صحة الوفاء . وهذه الصفة حسنة جدًّا وواجب استعمالها فى كل وجه من وجوه معاملات الناس فيما بينهم على أى حال كانت .

خبر

ولعهدى برجل من صَفوة إخوانى قد عَلق بجارية فتأكد الود بينهما ، ثم غدرت بعهده ونَقضت وُده وشاع خبرها ، فوَجد لذلك وجداً شديداً .

خبر :

وكان لى مرّة صديق ، ففَسدت نيّته بعد وَكيد مودة لا يُكفر بمثلها ، وكان علم كل واحد منا سر صاحبه ، وسَقطت المؤونة ، فلما تغير علىّ أفشى كل ما اطلع لى عليه مما كنت اطلعت منه على أضعافه ، ثم اتصل به أن قوله فى قد بلغنى ، فجزع لذلك وخشى أن أُقارضه على قبيح فعلته . وبلغنى ذلك فكتبت إليه شعراً أؤنسه فيه وأعلمه أنى لا أقارضه .

خبر :

ومما يدخل فى هذا الدّرج ، وإن كان ليس منه ولا هذا الفصل المتقدم من جنس الرسالة والباب ولكنه شبيه له على ما قد ذكرنا وشرطنا ، وذلك

أن محمـــــد بن وليد بن مكسير الـكاتب كان مُتصلًا بى ومُنقطعاً إلى أيام وزارة أبى رحمة الله عليه ، فلما وقع بقُرطبة ما وقع وتغيّرت أحوال خرج إلى بعض النواحى فاتصل بصاحبها فعرض جاهُه وحدثت له وَجاهة وحال حسنة . فحللتُ أنا تلك الناحية فى بعض رحلتى فلم يُوَفّنى حقى بل ثَقُل عليه مكانى وأساء معاملتى وصُحبتى ، وكلَّفته فى خلال ذلك حاجة لم يقُم فيها ولا قَعد واشتغل عنها بما ليس فى مثله شُغل . فـكتبت إليه شعراً أعاتبه فيه ، فجاوبنى مستعتباً على ذلك . فما كلَّفته حاجة بعدها . ومما لى فى هذا المعنى وليس من جنس الباب ولـكنه يشبهه أبياتاً قلتها ، منها :

وليس يُحمد كِتْمان لمُكتتم لـكنَّ كَتْمك ما أفشاه مُفْشيه
كالجُود بالوَفْر أسنَى ما يكون إذا قَلّ الوُجود له أو ضَنّ مُعْطيه

ثم مَرتبة ثالثة وهى الوفاء مع اليأس البات ، و بعد حلول المنايا وفجا آت المنون . و إن الوفاء فى هذه الحالة لأجلّ وأحسن منه فى الحياة ومع رجاء اللقاء .

خبر :

ولقد حدّثتني أمرأة أثق بها أنها رأب فى دار محمد بن أحمد بن وهب المعروف بابن الركيزة من وَلد بدر الداخل مع الإمام عبد الرحمن بن معاوية رضى الله عنه جارية رائعة جميلة كان لها مولى ، فجاءته المنيَّة فبيعت فى تركته ، فأبت أن ترضى بالرجال بعده وما جامعها رجل إلى أن لقيت الله عز وجل . وكانت تُحسن الغناء فأنـكرت علمَها به ورضيت بالخدمة والخروج عن جملة المتخذات للنَّسل واللذة والحال الحسنة ، وفاءً منها لمن قد دثَر ووارتْه الأرض والتأمت عليـه الصفائح . ولقد رامها سيدها المذكور أن يضمّها إلى فراشه مع سائر جواريه ويُخرجها مما هى فيه فأَبت ، فضربها غير مرة وأوقع بها الأدب ، فصبرت على ذلك كله . فأَقامت على امتناعها . و إن هذا من الوفاء غريب جداً .

واعلم أن الوفاء على المحب أوجب منه على المحبوب وشرطه له ألزم ، لأن

المحب هو البادي باللصوق والتعرّض لعقد الأذمة والقاصد لتأكيد المودة والمستدعى صحة العشرة، والأول فى عدد طلاب الأصفياء، والسابق فى ابتغاء اللذة باكتساب الخلة ، والمقيد نفسه بزمام المحبة قد عقلها بأوثق عقال وخطمها بأَشد خطام ، فمن قسره على هذا كله إن لم يرد إتمامه ؟ ومن أجبره على أُستجلاب المِقة إن لم يَنْو خَتْمها بالوفاء لمن أراده عليها ؟ والمحبوب إنما هو مجلوب إليه ومقصود نحوه ومخيّر فى القبول أو الترك فإن قبل فغاية الرجاء ، و إن أبى فغير مستحق للذم . وليس التعرض للوصل والإلحاح فيه والتأنى لكل ما يُستجلب به من الموافقة وتصفية الحضرة والمغيب من الوفاء فى شىء ، فحظ نفسه أراد الطالب ، وفى سُروره سَعى وله احتطب . والحب يدعوه ويَحْدوه على ذلك شاء أو أبَى ، و إنما يُحمد الوفاء ممن يقدر على تركه .

وللوفاء شُروط على المُحبين لازمة . فأَولها أن يحفظ عهدَ محبوبه ويرعى غيبته ، و تستوى علانيته وسريرته ، و يطوى شره و ينشر خيره ، و يغطي على عيوبه و يحسن أفعاله ، و يتغافل عما يَقع منه على سبيل الهفوة و يرضى بما حمله ، ولا يكثر عليه بما ينفر منه ، وألا يكون طُلعة ثؤوباً ولا مَلّةً طَروقاً . وعلى المحبوب إن ساواه فى المحبَّة مثل ذلك ، و إن كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته ولا له الاستشاطة عليه بأَن يسومه الاستواء معه فى درجته . و بحسبه منه حينئذ كتمان خبره وألا يقابله بما يكره ولا يُخيفه به ، و إن كانت الثالثة وهى السلامة ممايلقى بالجملة فَلْيقنع بما وجد ، وليأْخذ من الأمر ما استدف(١) ولا يطلب شرطاً ولا يقترح حقا . و إنما له ما سنح بجده أو ما حان بكده ، واعلم أنه لا يَستبين قُبح الفعل لأهله ، ولذلك يتضاعف قُبحه عند من ليس من ذويه . ولا أقول قولى هذا مُمتدحاً ولكن آخذاً بأدب الله عز وجل . (وأمّا بنعمة ربك فحَدِّث) .

---

(١) استدف : سهل وأمكن .

لقد مَنحنى الله عز وجل من الوفاء لـكُل من يَمُت إلىّ بلقية واحدة ، ووهبنى من المحافظة لمن يتذمّم منى ولو بمُحادثته ساعة حظًا ؟ أنا له شاكر وحامد ومنه مُستمد ومستزيد ، وما شىء أثقل علىّ من الغدر ، ولعمرى ما سمحت نفسى قط فى الفِـكرة فى إصرار مَن بينى و بينه أقل ذمام ، وإن عظمت جريرته وكثرت إلىّ ذنوبه ، وَلقد دَهمنى من هـــذا غيرُ قليل فما جزيت على السُّوءى إلا بالحُسنى ، والحمد لله على ذلك كثيراً ، و بالوفاء أفتخر فى كلمة طويلة ذكرت فيها مامضنا من النـكبات ، ودهمنا من الحل وَالترحال والتحول فى الآفاق . أولها :

وَلّى فولّى جميلُ الصبر يَتبعه ... وصَرّح الدمعُ ما تُخفيه أضلعُه
جِسْم مَلُول وَقلْب آلِفٌ فإذا ... حَلّ الفراق عليه فهو مُوجعه
لم تستقرّ به دارٌ ولا وَطن ... ولا تَدَفّأ منه قطّ مَضْجعه
كأنما صِيغ من رَهْو السّحاب فما ... تَزال ريحٌ إلى الآفاق تَدْفعه
كأنما هو تَوْحيد تَضيق به ... نَفْسُ الكفور فتأبَى حين تُودعه
أو كوكب قاطع فى الأفق منتقل ... فالسَّير يُغرِبُه حِيناً و يُطلعه
أظنّه لو جَزَته أو تُساعده ... ألقت عليه انْهمال الدمع يَتبعه

و بالوفاء أيضا أفتخر فى قصيدة لى طويلة أوردتها . و إن كان أكثرها ليس من جنس الـكتاب ، فـكان سبب قولى لها أن قوماً من مُخالفى شرقوا بى فأساءوا العتب فى وجهى وقذفونى بأنى أعضُد الباطل بُحجتى ، عجزاً منهم عن مُقاومة ما أوردته من نَصر الحق وأهله ، وحسداً لى . فقلت ، وخاطبت بقصيدتى بعض إخوانى وكان ذا فهم ، منها :

وَخُذْنى عصا موسى وهات جميعَهم ... ولو أنهم حَيّات ضالٍ نَضانِض

ومنهـا :

يُريغون فى عَينى عجائب جَمّة ... وَقد يُتمنّى الليثُ وَالليثُ رابِض

ومنها :

ويَرجون ما لا يبلغون كمِثْل ما   يُرجِّى محالاً فى الإمام الرَّوافض

ومنها :

ولو جـلدى فى كل قلْب ومُهجة   لمـا أثَّرت فيهـا العيون المرائض

أبتْ عن دنىء الوَصف ضربة لازب   كما أبتِ الفِعلَ الحرُوفُ الخوافض

ومنها :

ورَأْيِى له فى كُل ما غابَ مسْلك   كما تَسْلُكُ الجسمَ العروقُ النوابض

يَبين مدَبّ النمل فى غير مُشـكل   ويُسـترُ عنهم للفُيول المَرابض

باب الغدر

وكما أنّ الوفاء من سرىّ النعوت ونَبيل الصفات ، فـكذلك الغدر من ذَميمها ومكروهها ، و إنمـا يُسمى غدراً من البادى . وأما المُقارض بالغدر على مثله ، و إن استوى معـــه فى حقيقة الفعل فليس بغدر ولا هو مَعيباً بذلك ، والله عز وجل يقول : (وجَزاء سيئة سيئة مثلُها) . وقد علمنا أنّ الثانية ليست بسيّئة ولـكنْ لمـا جانست الأولى فى الشبه أُوقع عليها مثلُ أسمها ، وسيأتى هذا مفسَّرا فى باب السلو إن شاء الله . ولـكثرة وجود الغدر فى المحبوب أُستَغرب الوفاء منـه فصار قليله الواقعُ منهم يُقاوم الـكثيرَ الموجود فى سواهم . وفى ذلك أقول :

قليلُ وَفاءِ من يهْوَى يَجلّ   وعُظْم وفاء من يَهْوَى يَقِلّ

فنادرةُ الجبانِ أجلّ ممـا   يَجىء به الشجاعُ المُستقل

ومن قبيح الغدر أن يكون المُحب سفير إلى محبو به يستريح إليـه بأسراره فيسعى حتى يَقلبه إلى نفسه و يستأثر به دونه . وفيه أقول :

أقمت سفيراً قاصـداً فى مَطالبي   وثقتُ به جهـلا فَضرَّب بيننا

وحـــل عُرى وُدِّى وأثبت وُدّه   وأبعد عنِّى كلّ ما كان مُمْكنا

فصرتُ شهيداً بعدما كنت مُشْهِدًا   وأصبحت ضيفاً بعد ما كان ضَيفَنا

ضهر :

ولقد حدّثنى القاضى يونس بن عبد الله قال : أذكر فى الصّبى جارية فى بعض السدد يهواها فتى من أهل الأدب من أبناء الملوك وتهواه ويتراسلان ، وكان السفير بينهما والرسول بكتبهما فتًى من أترابه كان يصل إليها ، فلما عُرضت الجارية للبيع أراد الذى كان يُحبها ابتياعها ، فبدر الذى كان رسولا فاشتراها . فدخل عليها يوماً فوجدها قد فتحت دُرجاً لها تطلب فيه بعض حوائجها ، فأتى إليها وجعل يفتّش الدّرج ، فخرج إليه كتاب من ذلك الفتى الذى كان يهواها مضمّخًا بالغالية مَصوناً مُكرماً ، فغضب وقال : من أين هذا يا فاسقة ؟ قالت : أنت سُقته إلىّ . فقال : لعله مُحدَث بعد ذاك الحين . فقالت : ما هو إلا من قديم تلك التى تعرف . قال : فكأنما ألقمته حجراً ، فسُقِط فى يديه وسكت .

باب البين

وقد علمنا أنه لابد لكل مُجتمِع من افتراق ، ولكل دانٍ من تَنَاء ، وتلك عادة الله فى العباد والبلاد حتى يرث الله الأرض ومَن عليها وهو خير الوارثين . وما شىء من دواهى الدنيا يَعدل الافتراق ، ولو سالت الأرواحُ به فضلا عن الدموع كان قليلا . وسمع بعضُ الحكماء قائلا يقول : الفِراق أخو الموت ، فقال : بل الموت أخو الفراق .

والبين ينقسم أقساماً :

فأولها مُدة يُوقَن بانصرامها وبالعودة عن قريب ، وإنه لشَجًى فى القلب ، وغُصَّة فى الحلق لا تبرأ إلا بالرّجعة ، وأنا أعلم مَن كان يَغيب من يُحب عن بصره يوماً واحداً فيعتريه من الهلَع والجزَع وشُغل البال وترادُف الكُرَب ما يكاد يأتى عليه .

ثم بَيْنٌ مَنْعٌ من اللقّاء ، وتَحظير على المحبوب من أن يراه مُحبه ، فهذا

— ولو كان من تُحبه معك فى دار واحدة — فهو بين ؛ لأنه بائن عنك . و إن هذا ليولِّد من الحزن والأسفِ غيرَ قليل ، ولقد جرَّبناه فكان مُرّا ، وفى ذلك أقول :

أرى دارَها فى كل حِين وساعةٍ ... ولـكنَّ مَن فى الدار عنّى مُغيَّب

وهل نافِعى قُربُ الدِّيار وأهلِها ... عَلَى وَصْلهم منى رقيبٌ مُراقِبُ

فيالكَ جار الجَنْب أسمع حِسّه ... وأعـــلم أن الصِّين أدنى وأقرب

كصادٍ يَرى ماء الطَّوىّ بعَينه ... وليس إليـــه من سبيل يُسبِّب

كذلك مَن فى اللَّحد عنك مُغيَّب ... وما دونه إلا الصَّفيح المُنصَّب

وأقول من قصيدة مُطوَّلة :

مَتى تَشتفى نفسٌ أضَرَّ بها الوَجْد ... وتَصْقَب دار قد طوى أهلَها البُعد (١)

وعَهدى بهنْـدٍ وهى جارة بَيْتنا ... وأقربُ من هِنْـد لطالبها الهِنْد

بلى إنّ فى قُرب الدِّيار لراحةً ... كما يُمسك الظمآن أن يَدْنو الوِرْد

ثم بَيْن يتعمّده المحب بُعْداً عن قول الوُشاة ، وخوفاً أن يكون بقاؤه سبباً إلى منع اللقاء ، وذريعة إلى أن يَفشو الـكلام فيقع الحجابُ الغليظ .

ثم بَيْنٌ يولِّده المُحب لبعض ما يدعوه إلى ذلك من آفات الزمان ، وعُذره مقبول أو مطرح على قدر الحافز له إلى الرحيل .

خبر :

ولَعهدى بصـديق لى دارُه المريّة ، فعَنَتْ له حوائجُ إلى شاطِبة فقصدها ، وكان نازلا بها فى منزلى مدةَ إقامته بها ، وكان له بالمريّة علاقة هى أكبر همّــه وأدهى غَمه ، وكان يؤمِّل بَتَّها وفراغ أسبابه وأن يُوشك الرَّجعة ويُسرع الأوبة ، فلم يكن إلا حِينٌ لطيف بعد احتلاله عندى حتى جَيَّشَ الموفَّق أبو الحسن مجاهد صاحب الجزائر الجيوش وقرّب العساكر ونابذ خَـيران صاحب المريّة وعزم على استئصاله ، فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب ، وتُحوميت السُّبل واُحتُرس البحر

---

(١) تصقب : تقرب ، من باب فرح .

بالأساطيل ، فتضاعف كَرْبه إذ لم يجد إلى الانصراف سبيلاً البتة ، وكاد يَطفأ أسفاً ، وصار لا يأنس بغير الوُحدة ، ولا يلجأ إلا إلى الزفير والوُجوم . ولعمرى لقد كان ممن لم أقدُر قط فيه أنّ قلبه يُذعن للود ، ولا شراسةَ طَبعه تجيب إلى الهوى .

وأذكر أنى دخلتُ قرطبة بعد رحيلى عنها ثم خرجتُ منصرفاً عنها فضمّنى الطريق مع رجل من الكُتّاب قد رَحل لأمر مُهم وتخلّف سَكْن له(١) ، فكان يَرمَض لذلك . وإنى لأعلم مَن عَلِق بهوًى له وكان فى حال شَظف وكانت له فى الأرض مذاهبُ واسعة ومناديح رَحْبة ووُجوه متصرّف كثيرة ، فهان عليه ذلك وآثر الإقامة مع من يحب ، وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

لك فى البلاد مَنادِحٌ مَعلومةٌ والسيفُ غُفْل أو يَبين قِرابهُ

ثم بَيْنُ رحيل وتباعد ديار ، ولا يكون من الأوبة فيه على يقين خَبر ، ولا يَحدُث تلاق . وهو الخَطب المُوجع ، والهم المُفظع ، والحادث الأشنع ، والداء الدوىّ . وأكثر ما يكون الهلَع فيه إذا كان النائى هو المحبوب ، وهو الذى قالت فيه الشعراء كثيراً . وفى ذلك أقول قصيدة ، منها :

وذى علّة أعيا الطبيبَ عِلاجُها ستُوردنى لا شكّ مَنْهلَ مَصْرعى
رَضيتُ بأن أُضحِى قتيلَ وداده كجارع سمٍّ فى رَحيق مُشعشع
فما لليالى ما أقلّ حَياءَها وأوْلَعَها بالنفس من كل مُولَع
كأنّ زمانى عَبْشمىٌّ يخالُنى أعنتُ على عُثمان أهلَ التشيُّع

وأقول من قصيدة :

أطنّك تِمثال الجِنان أباحه لُمجتهد النسّاك من أوليائه

وأقول من قصيدة :

لأبْرد باللّقيا غَليلاً من الهَوى توقَّع نيرانَ الغَضى هَيَانُه

---

(١) السكن : أهل الدار .

وأقول شعراً منه :

خَفِيتَ عن الأبصار والوجدُ ظاهر ... فاعجبْ بأعراض تَبين ولاشَخْص

غَدا الفَلَكُ الدوّار حَلقةَ خاتَم ... مُحيطٍ بمـا فيه وأنتَ له فَصّ

وأقول من قصيدة :

غَنِيت عن التَّشبيه حُسناً وبَهجة ... كما غَنِيت شمسُ السَّماء عن الحَلْى

عجبتُ لنفسى بعده كيف لم تَمُت ... وهِجْرانُه دَفنى وفُقـدانه نَعْيى

وللجَسَد الغضّ المُنعَّم كيف لم ... تُذِبْه يد خشناء . . . . . . (١)

وإنّ للأوبة من البَيْن الذى تُشفق منه النفس لطُول مسافته وتكاد تيأس من العودة فيه ، لروعةً تبلغ مالا حدَّ وراءه وربما قتلت . وفى ذلك أقول :

للتلاقى بعـــد الفِراق سرورٌ ... كسُرور المُفيق حانت وفاتُه

فَرحةٌ تُبهج النفوس وتُحيى ... مَن دنا منـه بالفراق مماتُه

ربما قد تـكون داهيـةُ المو ... ت وتُودى بأهله هَجَماته

كم رأينا من عَبّ فى المـاء عَطشا ... نَ فزار الحِمـامِ وهو حَياته

وانى لأعلم مَن نأت دارُ محبوبه زمناً ثم تيسّرت له أوبة فلم يكن إلا بقَدْر التسليم واستيفائه ، حتى دعتْه نوًى ثانية فكاد أن يَهلك . وفى ذلك أقول :

أطلتُ زمان البُعد حتى إذا انقضى ... زمان النَّوى بالقرب عُدْت إلى البُعد

فلم يكُ إلاّ كَرّة الطَّرف قُرْبكم ... وعاودكم بَعدى وعاودنى وَجْدى

كذا حائر فى اللَّيل ضاقت وجوهُه ... رأى البرقَ فى داجٍ من اللَّيل مُسودِّ

فأخلفه منـــــه رجاء دوامه ... وبعضُ الأراجى لاتُفيد ولاتُجدى

وفى الأوبة بعد الفراق أقول قطعة ، منها :

لقد قرّت العينان بالقُرب منكمُ ... كما سَخُنت أيامَ يطويكمُ البُعدُ

فلله فيما قد مَضى الصبرُ والرِّضى ... ولله فيما قد قَضى الشكرُ والحمد

---

(١) بياض فى الأصل .

خبر :

ولقد نُعى إلىّ بعضُ مَن كنتُ أحب من بلدة نازحة ، فقمتُ فارًّا بنفسى نحو المقابر وجعلتُ أمشى بينها وأقول :

وَددْتُ بأنّ ظهر الأرض بطنٌ   وأن البطن منهـا صار ظَهرا
وأنى متُّ قبــل وُرود خَطب   أتى فأثار فى الأكباد جَمرا
وأن دَمى لمن قد بان غُسْل   وأنّ ضُلوعَ صدرى كُنّ قَبرا

ثم اتصل بعد حين تــكذيبُ ذلك الخبر فقلت :

بُشرى أتتْ واليـأسُ مُستحكم   والقلبُ فى سَبْع طِباَق شِـدَاد
كَسَت فؤادى خُضرة بعـدما   كان فؤادى لابساً للحِداد
جـلّى سوادَ الغمّ عنى كما   يُجْلى بلون الشمس لونُ السواد
هــذا وما آمُل وصلاً سوى   صِـــدْقَ وفاء بقَديم الوِداد
فالمُزن قد تُطلب لا للحَيـا   لــكنْ لظلّ بارد ذى امتداد

ويقع فى هذين الصنفين من البَين الوداع ، أعنى رحِيلَ المُحب أو رحيـل المحبوب . وإنه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التى تَفتضح فيهـا عزيمة كل ماضى العزائم ، وتذهب قوة كل ذى بصيرة ، وتَسكب كلُّ عين جَمُود، ويَظهر مكنون الجوى . وهو فصل من فصول البَـيْن يجب التكلّم فيه ، كالعتاب فى باب الهجر . ولعمرى لو أن ظريفاً يموت فى ساعة الوداع لكان معذوراً إذا تفـكّر فيما يحُل به بعد ساعة من انقطاع الآمال ، وحلول الأوجال ، وتبدّل السرور بالحزن . وإنها ساعة تُرِقّ القلوب القاسية ، وتُلين الأفئدة الغلاظ . وإن حركة الرأس وإدمان النظر والزّفرة بعد الوداع لهاتِـكةٌ حجابَ القلب ، ومُوصلة إليه من الجزع بمقدار ما تفعل حركةُ الوجه فى ضد هذا .

والإشارة بالعين والتبسّم ومواطن المُوافقة والوداع ينقسم قسمين ، أحدهما لا يتمكّن فيه إلا بالنظر والإشارة ، والثانى يتمكن فيه بالعناق والملازمة ، وربما

لعلّه كان لا يُمكن قبل ذلك البتة مع تجاور المحال وإمكان التلاقى ، ولهذا تمنّى بعض الشعراء البَيْنَ ومدحوا يوم النوى ، وما ذاك بحسن ولا بصواب ولا بالأصيل من الرأى ، فما يفى سرورُ ساعة بحزن ساعات ، فكيف إذا كان البين أياماً وشهوراً وربما أعواماً ، وهذا سوء من النظر ومعوجّ من القياس ، وإنما أثنيتُ على النوى فى شعرى تمنّياً لرجوع يومها ، فيكون فى كل يوم لقاء ووداع . على أن تحمُّل مضض هذا الاسم الكريه ، وذلك عند ما يمضى من الأيام التى لا التقاء فيها ، يرغِّب المحب عن يوم الفراق لو أمكنه فى كل يوم . وفى الصنف الأول من الوداع أقول شعراً ، منه :

تَنوبُ عن بَهجة الأنوار بهجتُه ... كما تَنوب عن النِّيران أنفاسى

وفى الصنف الثانى من الوداع أقول شعراً ، منه :

وجهٌ تخِرّ له الأنوار ساجدةً ... والوجهُ تمٌّ فلم ينقُص ولم يزد
دِفْءٌ وشمسُ الضحى بالجَدْى نازلة ... وبارد ناعمٌ والشمسُ فى الأسَدِ

ومنه :

يوم الفِراق لعمرى لستُ أكْرهه ... أصلاً وإن شتّت شملُ الروح عن جَسدى
ففيه عانقتُ من أهوى بلا جَزع ... وكان مِن قبله إن سِيل لم يجُد
أليس من عَجب [دمعى] وعَبرتها ... يومُ الوصال ليوم البَين ذو حَسد

وهل هجس فى الأفكار أو قام فى الظنون أشنعُ وأوجع من هَجر عِتاب وقع بين مُحبين ، ثم فجأتْهما النوى قبل حُلول الصُّلح وانحلال عُقدة الهجران ، فقاما إلى الوداع وقد نُسى العِتاب ، وجاء ما طمّ على القُوى وأطار الكرى . وفيه أقول شعراً ، منه :

وقد سقط العَتْب المُقدَّم وامَّحى ... وجاءت جُيوش البَيْن تجرى وتُسرِعُ
وقد ذعر البينُ الصدودَ فراعه ... فولّى فما يُدْرَى له اليومَ موضعُ
كذئب خلاَ بالصَّيد حتى أضلّه ... هِزَبْر له من جانب الغِيل مَطْلع

لئن سَرَّنى فى طَرْده الهجرَ أننى   لإبعاده عنّى الحبيبَ لَموجَع
ولا بُد عند الموت من بعض راحة   وفى غَيِّها الموتُ الوحِيّ المُصرِّع

وأعرف من أتى ليُودِّع محبو بَه يوم الفِراق فوجده قد فات ، فوقف على آثاره ساعةً وتردّد في الموضع الذى كان فيه ثم أنصرف كئيباً متغيِّر اللون كاسف البال، فما كان بعد أيام قلائل حتى أعتل ومات رحمه الله .

و إِن للبين فى إظهار السرائر المطوية عملا عجباً ، ولقد رأيتُ من كان حُبه مكتوماً و بما يَجد فيه مستتراً حتى وقع حادثُ الفراق فباح المكنون وظهرالخفي. وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

بذلتَ من الودّ ما كان قبلُ   منعتَ وأعطيتنيه جُزافاً
ومالى به حاجةٌ عند ذاك   ولو جُدتَ قبلُ بلغتَ الشِّغافا
وما يَنفع الطبّ عند الحِمام   و يَنفع قبل الرَّدى مِن تِلاَفا

وأقول :

الآن إِذ حلّ الفِراقُ جُدْتَ لى   بِخَفِيّ حُبّ كنتَ تُبدى بُخْله
فزدتنى في حَسرتى أضعافَها   وَيْحى فهلاّ كان هذا قبله

ولقد أذكرنى هذا أنى حَظيتُ فى بعض الأزمان بمودة رجل من وزراء السلطان أيام جاهه فأظهر بعض الاُمتساك ، فتركته حتى ذهبت أيامه وانقضت دولته ، فأبدى لى من المودة والأخوة غير قليل ، فقلت :

بَذَلْتَ لىَ الإعراضَ والدهرُ مُقبل   وتَبذل لى الإقبال والدهرُ مُعرض
وتَبسطنى إِذْ ليس ينفع بَسْطُكم   فهلاّ أبحت البَسْط إذ كنت تقبض

ثم بَينُ الموت وهو الفوت ، وهو الذى لا يُرجى له إياب ، وهو المصيبة الحالّة وهو قاصمة الظهر ، وداهية الدهر ؛ وهو الويل ، وهو المُغَطِّى على ظلمة الليل ؛ وهو قاطع كل رجاء ، وماحى كل طمع والمؤيس من اللقاء . وهنا حارت الألسن ، وانجذم حبل العلاج ، فلا حيلة إلا الصبر طوعاً أو كرهاً . وهو أجلّ ما يُبتلى به

المحبون ، فما لمن دهى به إلا النوح والبكاء إلى أن يتلف أو يَملّ ، فهى القرحة التى لا تُنكى ، والوجع الذى لا يَفْنى ، وهو الغمّ الذى يتجدّد على قدر بلاء من أعتمدته ، وفيه أقول :

كُلُّ بَيْنٍ واقعٍ فمُرجَّى لم يَفُت
لا تَعجَّل قَنطًا لم يَفُتْ مَن لم يَمُت
والذى قد مات فال‍ يأس عنه قد ثَبت

وقد رأينا مَن عَرض له هذا كثيراً . وعنى أخبرك أنى أحدُ من دُهى بهذه الفادحة وتعجّلت له هذه المصيبة ، وذلك أنى كنتُ أشدَّ الناس كلفاً وأعظمهم حُبّا بجارية لى ، كانت فيما خلا اسمها نُعْم . وكانت أمنيةَ المتمنِّى وغايةَ الحسن خَلقاً وخُلقاً ومُوافقة لى ، وكنت أنا عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ، ففجعتْنى بها الأقدار وأخترمتها الليالى ومرُّ النهار ، وصارت ثالثةَ التراب والأحجار . وسنِّى حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هى دونى فى السن ، فلقد أقمتُ بعدها سبعةَ أشهر لا أتجرّد عن ثيابى ولا تَفتر لى دمعة على جُمود عيني وقلة إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوتُ حتى الآن . ولو قُبِل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف و ببعض أعضاء جسمى العزيزة علىَّ مُسارعاً طائعاً . وما طاب لى عيش بعدها ولا نسيتُ ذكرها ولا أَنِسْتُ بسواها . ولقد عَفَّى حُبي لها على كل ما قبله ، وحرَّم ما كان بعده . ومما قلتُ فيها :

مُهذَّبة بَيضاء كالشَّمس إن بدتْ وسائر ربّاتِ الحِجال نُجوم
أطار هواها القلبَ عن مُستقرِّه فبعد وقوعٍ ظلّ وهو يَحوم

ومن مراثىّ فيها قصيدةٌ ، منها :

كأنى لم آنسْ بألفاظِكِ التى على عُقَد الألباب هُنَّ نوافثُ
ولم أتحكّم فى الأمانى كأننى لإفراط ما حُكِّمتُ فيهنّ عابث

ومنها :

ويُبدين إعراضاً وهنَّ أوالفٌ ويُقْسِمن فى هَجْرى وهن حَوانثُ

وأقول أيضاً فى قصيدة أخاطب فيها أبن عمى أبا المُغيرة عبدَ الوهاب أحمد بن عبد الرحمن بن حَزم بن غالب وأقرضه ، فأقول :

قِفا فاُسألا الأطلالَ أين قَطِينُها أمرَّت عليها بالبِلَى المَلَوان
على دَارسات مُقفِرات عَواطل كأنّ المَغانى فى الخفاء مَعانى

واُختلف الناسُ فى أى الأمرين أشدّ : البينُ أمِ الهجر ؟ وكلاهما مُرتقيً صعب وموت أحمر وبليّة سوداء وسنة شَهباء . وكُل يستبشع من هذين ما ضادّ طبعَه ، فأما ذو النفس الأبية ، الألوف الحنانة ، الثابتة على العهد ، فلا شىء يعدل عنده مُصيبةَ البَين ، لأنه أتى قصداً ، وتعمدتْه النوائب عمداً ، فلا يجد شيئاً يسلى نفسه ولا يصرف فكرته فى معنى من المعانى إلا وجد باعثاً على صُبابته ، ومحركاً لأشجانه ، وعليه لا له ، وحجّة لوجده ، وحاضّا على البكاء على إلفه . وأما الهجر فهو داعية السلو ، ورائد الإقلاع .

وأما ذو النفس التوّاقة الكثيرة النزوع والتطلع ، القلوق العزوف ، فالهجر داؤه وجالبُ حَتفه . والبين له مَسلاة ومنساة .

وأما أنا فالموت عندى أسهل من الفراق ، وما الهجر إلا جالب للكمد فقط، ويوشك إن دام أن يُحدث إضراراً ، وفى ذلك أقول :

وقالوا اُرتحل فلعلّ السُّلوّ يكون وترغب أن ترْغبه
فقلت الرّدى لى قبل السلوّ ومَن يَشرب السمّ عن تَجْربه

وأقول :

سَبَى مُهْجتى هَواهُ وأودتْ بها نَواهُ
كأنّ الغرام ضَيف ورُوحى غَدَا قِرَاه

ولقد رأيت مَن يستعمل هجر محبوبه ويتعمده خوفاً من مرارة يوم البَيْن وما يحدُث به من لوعة الأسف عند التفرّق ، وهذا وإن لم يكن عندى من

المذاهب المرضية ، فهو حجة قاطعة . على أن البين أصعب من الهجر ، وكيف لا وفى الناس من يلوذ بالهجر خوفاً من البين ، ولم أجد أحداً فى الدنيا يلوذ بالبين خوفاً من الهجر ، و إنما يأخذ الناسُ أبداً الأسهل و يتكلّفون الأهون . و إنما قلنا إنه ليس من المذاهب المحمودة لأن أصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله ، وتجرعوا غصة الصبر قبل وقتها . ولعل ما تخوّفوه لا يكون وليس من يتعجل المكروه ، وهو على غير يقين مما يتعجل ، بحكيم ، وفيه أقول شعراً ، منه :

لَبِس الصبُّ للصبابة بَيْناً ليس من جانب الأحبة منّا
كغَنِىّ يعيش عيشَ فقيرٍ خوفَ فَقْر وفقرُه قد أبنّا

وأذكر لابن عمى أبى المغيرة هذا المعنى ، من أن البين أصعبُ من الصدّ ، أبياتاً من قصيدة خاطبنى بها وهو ابن سبعة عشر عاما أو نحوها ، وهى :

أَجزعْتَ أن أزف الرّحيل وولهْتَ أن نُصَّ الذّميل
كلاَّ مُصابك فادحٌ وأجَلْ فراقُهم جَليل
كَذَب الألى زعموا بأنّ الصد مرتعُه وَبيل
لم يَعرفوا كُنه الغليل وقد تحمّلتِ الحُمول
أما الفِراق فإنه للموت إن أهوَى دَليل

ولى فى هذا المعنى قصيدة مطولة ، أولها :

لا مِثْلَ يَوْمك ضَحْوةُ التَّنْعيم فى مَنْظر حَسَن وفى تَنْغيم
قد كان ذاك اليومُ نَدْرة عاقرٍ وصوابَ خاطئة ووُلْد عَقِيم
أيّامَ برقُ الوَصْل ليس بخُلَّب عندى ولا رَوْضُ الهوى بِهَشِيم
من كل غانيـة تقول ثُدِيُّها سِيرِى أمامك والإزارُ أَقِيمى
كُلٌّ يُجاذبها فحُمْرة خَدّها خَجَلٌ من التأخير والتَّقديم
مابى سوى تلك العُيونِ وليس فى بُرْءٍ سواها فى الوَرَى بزَعيم
مثل الأفاعى ليس فى شىء سوَى أجسادها إبْراء لَدْغ سليم

والبَيْن أبكى الشعراءَ على المَعاهد فأدرُّوا على الرسوم الدموع ، وسقوا الديار ماء الشوق ، وتذكروا ما قدسلف لهم فيها فأعولوا وأنتحبوا ، وأحيت الآثار دفين شوقهم فناحوا و بكوا .

واقد أخبرنى بعضُ الورّاد من قُرطبة ، وقد أستخبرتُه عنها ، أنه رأى دورنا ببلاط مُغيث ، فى الجانب الغربىّ منها وقد امّحت رسومها ، وطُمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيَّرها البلى وصارت صحارى مجدبة بعدالعمران ، وفيافىَ مُوحشة بعد الأنس ، وخرائب مُنقطعة بعد الحُسْن ، وشِعاباً مُفزِّعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش ، بعد رجال كالليوث ، وخرائد كالدمى تفيض لديهم النّعم الفاشية . تبدّد شَملهم فصاروا فى البلاد أيادىَ سبا ، فكأَن تلك المحاريب المنمّقة ، والمقاصير المزّينة ، التى كانت تُشرق إشراق الشمس ، ويجلو الهموم حُسن منظرها ، حين شَمِلها الخرابُ،وعَمّها الهَدْم ، كأفواه السباع فاغرة ، تُؤذن بفناء الدنيا ، وتُريك عواقب أهلها ، وتُخبرك عمَّا يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتَزهد فى طلبها بعد أن طالما زهدتَ فى تركها ، وتذكرتُ أيامى بها ولَذّاتى فيها وشُهور صباى لديها ، مع كواعبَ إلى مثلهن صبا الحليم ، ومثّلت لنفسى كَونهن تحت الثرى وفى الآثار النائية والنواحى البعيدة وقد فرّقتهن يدُ الجلاء ، ومزقتهن أكفُّ النوى ، وخُيِل إلى بَصرى بقاء تلك النّصبة بعد ما علمتُهُ من حسنها وَغضارتها ، والمراتب المُحكمة التى نشأت فيها لديها ، وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها ، وأوهمتُ سمعى صوتَ الصدى والهام عليها ، بعد حركة تلك الجماعات التي رُبِّيت بينهم فيها ، وكان ليلُها تبعاً لنهارها فى انتشار ساكنها والتقاء عمارها ، فعادنهارُها تبعاًلليلها فى الهدوء والاستيحاش ، فأبكى عينى ، وأوجع قلبي ، وقرع صفاة كبدى ، وزاد فى بلاء لُبى ، فقلت شعراً ، منه :

لئن كان أظمانا فقد طالما سَقَى وإن ساءنا فيها فقد طالما سَرّا

والبَيْن يولّد الحنين والأهتياح والتذكر . وفى ذلك أقول :

ليتَ الغرابَ يُعيد اليومَ لى فعسى يَبين بينهمُ عنّى فقد وَقَفا
أقول والليلُ قد أرخَى أجلّته وقد تألّى بألاّ ينقضى فوفَى
والنجمُ قد حار فى أفق السماء فما يَمضى ولا هو للتغوير مُنصرفا
تخاله مُخطِئاً أو خائفاً وَجِلاً أو راقباً مَوْعداً أو عاشقاً دَنِفا

باب القنوع

ولا بد للمُحب ، إذا حُرم الوصل ، من القنوع بما يجد ، و إن فى ذلك لمتعللاً للنفس ، وشغلاً للرجا ، وتجديداً للمُنى ، وبعضَ الراحة . وهو مراتب على قدر الإصابة والتمكّن .

فأولها الزيارة ، و إنها لأمل من الآمال ، ومِن سرىّ ما يَسنح فى الدهر مع ما تبدّى من الخَفر والحياء ، لما يعلمه كل واحد منهما مما فى نفس صاحبه . وهي على وجهين : أحدهما أن يزور المُحب محبوبه ، وهـذا الوجه واسع . والوجه الثانى أن يزور المحبوب مُحبه . ولـكن لا سبيـل إلى غير النظر والحديث الظاهر . وفى ذلك أقول :

فإن تَنْأ عنّى بالوصال فإنني سأَرضى بلَحظ العين إن لم يكن وَصل
فحسبيَ أن ألقاك فى اليوم مرةً وما كنتُ أُرضى ضِعّفَ ذا منك لى قَبْلُ
كذا همّة الوالى تكون رفيعةً ويرضي خَلاصَ النفس إن وقع العزل

وأما رَجع السلام والمُخاطبة فأمل من الآمال، و إن كنت أنا أقول فى قصيدة لى:

فهـا أنا ذا أُخفى وأقنع راضياً برَجع سلام إن تَيسّر فى الحين

فإنما هذا لمن ينتقل من مَرتبة إلى ما هو أدنى منها . و إنما يتفاضل المخلوقات فى جميع الأوصاف علي قدر إضافتها إلى ما هو فوقها أو دونها . و إنى لأعلم مَن كان يقول لمحبوبه : عِدنى واكذب ، قنوعاً بأن يُسلّى نفسه فى وعده و إن كان غيرَ صادق . فقلت فى ذلك :

إن كان وصلُك ليس فيه مَطمع ... والقربُ ممنوع فعِدْنى وأُكذب
فعسى التعلّل بالتقائك مُمْسِكٌ ... لحيـاة قلبٍ بالصُّدود مُعذَّبِ
فلقد يُسلِّي المُجدبين إذا رأوا ... في الأُفق يَلْمع ضوءَ بَرْق خُلَّب

ومما يدخل فى هذا الباب شيء رأيته ورآه غيرى معى ، أن رجلاً من إخوانى جَرحه من كان يُحبه بمُدية ، فلقد رأيته وهو يُقبِّل مكان الجُرح و يندُبه مرة بعد مرة . فقلت فى ذلك :

يقولون شَجّكَ من همتَ فيـه ... فقلت لعمـرىَ ما شَجّنى
ولـكن أَحسّ دمى قُرْبه ... فطـار إليـــه ولم يَنْثَن
فيـا قاتِلي ظالمـاً مُحسـناً ... فديتُك مِن ظالم مُحسن

ومن القُنوع أن يُسر الإنسان ويَرضى ببعض آلات محبوبه ، وإنّ له من النفس لموقعاً حَسناً و إن لم يكن فيه إلا ما نَص الله تعالى علينا ، من ارتداد يعقوب بصيراً حين شَم قميص يوسف عليهما السلام . وفى ذلك أقول :

لمـا مُنعتُ القُرب من سـيّدى ... ولَجّ فى هَجرى ولم يُنصفِ
صِرْتُ بإبصـارِىَ أثوابَه ... أو بعضَ ما قد مَسّه أكتفى
كذاك يعقوب نبىّ الهُـدى ... إذ شَفّه الحُزن على يوسفِ
شَمَّ قميصاً جاء من عنـده ... وكان مَـكفوفاً فمنـه شُفِي

وما رأيتُ قط متعاشقين إلاّ وهما يتهاديان خُصل الشعر مبخّرة بالعنـبر مرشوشة بمـاء الورد ، وقد جمعت فى أصلها بالمُصطـكى و بالشمع الأبيض المصفّى . ولُفّت فى تطاريف الوشى والخز وما أشبه ذلك . لتـكون تذكرةً عند البين .

وأما تهادى المَساويك بعد مَضغها والمُصطـكى إثر استعمالها فـكثير بين كُل متحابين قد حُظِر عليهما اللقاء . وفى ذلك أقول قطعة منها :

أرى رِيقَها ماءَ الحياة تيقّنـاً ... على أنها لم تُبق لى فى الهوى حَشَى

خبر :

وأخبرنى بعض إخوانى عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صِقِلّية ، وذكر أنه كان غايةً فى الجمال ، فشاهده يوماً فى بعض المتنزهات ماشياً وامرأة خلفه تنظر إليه ، فلما أبعد أتت إلى المكان الذى قد أثّر فيه مشيُه فجعلت تقبّله وتلثَم الأرض التى فيها أثرُ رجله . وفى ذلك أقول قطعة ، أولها :

يلوموننى فى مَوطىءٍ خُفُّه خطا ولو عَلموا عاد الذى لام يَحْسُدُ
فيأهل أرضٍ لا تجود سحابُها خُذوا بوَصاتى تستقِلّوا وتُحمدوا
خُذوا من تُراب فيه موضعُ وَطئه وأَضْمن أن المَحْل عنكم يُبعَّد
فكُل تراب واقعٌ فيه رِجْلُه فذاك صعيدٌ طيّب ليس يُجْحد
كذلك فِعْل السامرىّ وقد بدا لعينيه من جِبْريل إثْر ممجّد
فصيّر جوفَ العِجل من ذلك الثرى فقام له منه خُوَار ممدَّد

وأقول :

لقد بُورِكتَ أرض بها أنت قاطنٌ وبُورِكَ مَن فيها وَحلّ بها السَّعدُ
فأحجارُها دُرٌّ وسَعْدانها وَرْد وأمواهها شُهد وتُربتها نَدّ

ومن القُنوع الرِّضا بمَزار الطَّيف ، وتَسليم الخيال . وهذا إنما يحدُث عن ذكر لا يفارق ، وعهد لا يحول ، وفكر لا ينقضى . فإذا نامت العيون وهدأت الحركات سَرى الطيف . وفى ذلك أقول :

زار الخيالُ فتًى طالت صَبابتُه على احتفاظ من الحُرّاس والحَفَظَه
فبتُّ فى لَيلتى جَذْلان مُبتهجاً ولذّة الطَّيف تُنسى لذّة اليَقَظه

وأقول :

أَتَى طيفُ نُعْم مَضْجعى بعد هَدْأة ولليلِ سُلطانٌ وظِلٌّ مُمدَّد
وَعهدى بها تحت التُّراب مُقيمةٌ وجاءت كما قد كنتُ من قبل أعهد

فعُدّنا كما كُنّا وعاد زَمانُنـا كما قد عَهِدْنا قبلُ والعَوْد أحمد

وللشعراء فى علّة مَزار الطيف أَقاويل بديعة بعيدة المرمى، مُخترعة ، كلٌّ سَبق إلى مَعني من المعانى ، فأبو إسحاق بن سيّار النظّام رأس المُعتزلة جعل علة مزار الطَّيف خوفَ الأرواح من الرقيب المرقّب ، على بهاء الأبدان . وأَبو تمام حبيب ابن أوس الطائى جعل علّته أنْ نِكاحِ الطيف لا يُفسد الحُب ونكاحَ الحقيقة يفسده . والبُحترى جعل علّة إقباله استضاءته بنار وَجده ، وعلّة زواله خوف الغرق فى دموعه . وأَنا أقول من غير أن أمثـل شعرى بأشعارهم ، فلهم فضل التقدم والسابقة وإنما نحن لاقطون وهم الحاصدون ، ولـكن اقتداءً بهم وجرياً فى ميـــدانهم وتتبعاً لطريقتهم التى نهجوا وأوضحوا ، أبياتاً بيّنت فيها مزارَ الطيف مقطَّعة :

أغارُ عليكِ من إدراك طَرْفى وأُشفق أن يُذيبك لَمْسُ كفى

فأَمتنع اللقـاءَ حِذارَ هـذا وأَعتمد التـلاقى حين أغفى

فرُوحى إن أنم بك ذو انفرادٍ من الأعضاء مُستترٌ ومُخْفى

ووصل الرُّوح ألطفُ فيك وَقعاً من الجِسم المواصل ألف ضِعفْ

وحال المَزور فى المنام ينقسم أقساماً أربعة : أحدهما مُحب مهجور قد تطاول غمه ، ثم رَأى فى هجعته أنّ حبيبه وَصله فسُر بذلك وأبتهج ، ثم استيقظ فأَسِف وتلّهف حيث علم أن ما كان فيه أمانىّ النفس وحديثها . وفى ذلك أقول :

أنت فى مَشرق النهار بَخيلٌ وإذا الليلُ جُنّ كُنت كريماً

تَجعل الشّمس منك لى عوضاً هيـ ـهات ماذا الفِعَالُ منك قويماً

زارني طيفُك البعيدُ فيـأْتى واصـلاً لى وعائداً ونَديماً

غير أَنّى منعتَنى من تمـام العَيـ ـش لـكن أَبحتَ لى التَّشْميا

فكأَنّى من أهل الأعراف لاالفرْ دوس دارى ولا أخاف الجَحيما

والثانى مُحب مواصل مُشفق من تغيُّر يقع ، قد رأى فى وَسَـنه أَنْ حبيبه

يهجُره فاهتم لذلك همّا شديداً ، ثم هبّ من نومه فعلم أنْ ذلك باطل وبعضَ وساوس الإشفاق .

والثالث مُحب دانى الديار يرى أن التنائى قد فَدحه ، فيـكترث وَيوْجَل ، ثم ينتبه فيذهب ما به و يعود فَرِحاً . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

رأيتُكَ فى نومى كأنك راحلٌ وقُمنا إلى التوديع والدمعُ هامل
وزال الـكَرى عنّى وأنت مُعانِقى وغمّىَ إذ عاينتُ ذلك زائل
فجدّدت تعنيقاً وضماً كأننى عليك من البَـيْن المُفرِّق واجل

والرابع مُحب نائى المزار ، يرى أنّ المزار قد دنا ، والمنـازل قد تَصاقبت ، فيرتاح و يأنس إلى فقد الأسى ، ثم يقوم من سِنته فيرى أن ذلك غيرُ صحيح ، فيعود إلى أشد ما كان فيه من الغم ، وقد جعلتُ فى بعض قولى علةَ النوم الطمع في طَيف الخيال ، فقلت :

طاف الخيالُ على مُستهتَر كَلِفٍ لولا ارتقابُ مزار الطَّيف لم يَنَم
لا تَعجبوا إذ سرى والليلُ مُعتكر فنُوره مُوهب فى الأرض للظلمَ

ومن القُنوع أن يَقنع المُحب بالنظر إلى الجُدران ورُؤية الحيطان التى تحتوى على من يُحب ، وقد رأينا مَن هذه صفتهُ . ولقد حدثني أَبو الوليد أحمد بن محمد ابن إسحاق الخازن رحمه الله عن رجل جليل ، أنه حدث عن نفسه بمثل هذا .

ومن القنوع أن يرتاح المُحب ، إلى أن يرى مَن رأى محبوبهُ و يأنس به ومن أَتَى من بلاده ، وهذا كثير . وفى ذلك أَقول :

توحَّش من سكّانه فـكأنهم مساكنُ عادٍ أَعقبتهْ ثَمودُ

ومما يدخل فى هـذا الباب أبياتٌ لى ، مُوجبها أنى تنزّهت أنا وجماعة من إخوانى من أهل الأدب والشرف إلى بستان لرجل من أصحابنا ، فُجلْنا ساعة ثم أفضى بنا القُعود إلى مكان دونه يُتمنَّى ، فتمددنا فى رياض أريضة ، وأرض عريضة ؛ للبصر فيها مُنفسح ، وللنفس لديها مسرح ؛ بين جَداول تطَّرد كأباريق اللجين ،

وأطيار تغرّد بألحان تزرى بما أبدعه معبد والغريض ، وثمار مهدّلة قد ذللت للأيدى ودنت للمتناول ، وظلال مُظلّة تلاحظنا الشمس من بينها فتتصوّر بين أيدينا كرقاع الشَّطَرنج والثياب المدبّجة ، وماء عَذْب يوجدك حقيقة طعم الحياة ، وأنهار متدفقة تَنساب كبُطون الحيات لها خرير يقوم ويهدأ ، ونَواوير مُونقة مختلفة الألوان تُصفِّقها الرياح الطيبة النسيم ، وهواء سَجْسج ، وأخلاق جُلاّس تفوق كل هذا ، فى يوم ربيعىّ ذى شَمس ظليلة ، تارة يُغطيها الغيمُ الرقيق والمُزن اللطيف ، وتارة تتجلّى ، فهى كالعذراء الَخفِرة والَخريدة الخجلة تتراءى لعاشقها من بين الأستار ثم تغيب فيها ، حَذر عَينٍ مراقبة . وكان بعضُنا مُطرقاً كأنه يحادث أخرى ، وذلك لسرّ كان له ، فعرِّض لى بذلك ، وتداعبنا حيناً فكلِفت أن أقول على لسانه شيئاً فى ذلك ، فقلتُ بديهة ، وما كتبوها إلا من تذكّرها بعد انصرافنا ، وهى :

ولما تروّحنا بأكناف روضةٍ ... مُهدَّلة الأفنان فى تُرْبها النَّدى
وقد ضحكتْ أنوارُها وتضوّعت ... أساورُها فى ظلِّ فَىءٍ ممدَّد
وأبدتْ لنا الأطيار حُسن صَريفها ... فمِن بين شاكٍ شَجْوَه ومُغرِّد
وللماء فيما بيننا مُتصرّف ... وللعين مُرتاد هناك ولليد
وماشئْتَ من أخلاقٍ أروعَ ماجدٍ ... كريمِ السجايا للفَخار مُشيِّد
تُنَغِّص عندى كلَّ ماقد وصفتُه ... ولم يَهْنِنى إذْ غاب عنِّىَ سيدى
فياليتنى فى السّجن وهو مُعانِقى ... وأنتمْ معاً فى قَصر دار المجدّد
فمن رام منّا أن يُبدِّل حاله ... بحال أخيه أو بمُلْكٍ مخلّد
فلا عاش إلا فى شَقاء ونَكْبة ... ولا زال فى بُؤْسَى وخِزْى مُردّد

فقال هو ومن حضر : آمين آمين . وهذه الوُجوه التى عَدَّدتُ وأوردتُ فى حقائق القناعة هى المَوجودة فى أهل المودة ، بلا تزيّد ولا إعياء .

وللشعراء فَنٌّ من القُنوع أرادوا فيه إظهارَ غرضهم وإبانة اُقتدارهم على المعانى

الغامضة والمَرامى البعيدة ، وكلٌّ قال على قدر قُوة طبعه ، إلا أنه تحكَّم باللسان وتشدَّق فى الكلام واستطال بالبيان ، وهو غير صحيح فى الأصل .

فمنهم من قنع بأن السماء تُظله هو ومحبوبه والأرض تُقلهما . ومنهم من قَنع باُستوائهما فى إحاطة الليل والنهار بهما ، وأشباه هذا . وكل مُبادرٌ إلى اُحتواء الغاية فى الاُستقصاء ، وإحراز قَصَب السبق فى التدقيق . ولى فى هذا المعنى قولٌ لا يُمكن لمتعقب أن يجد بعده مُتناولا ، ولا وراءه مكاناً ، مع تَبيينى علَّة قُرب المسافة البعيدة ، وهو :

وقالوا بعيدٌ قلتُ حَسبى بأنه ... معى فى زَمان لا يُطيق مَحيداً

تَمُر علىَّ الشمسُ مثلَ مُرورها ... به كُلَّ يوم يَستنير جديدا

فَمَن ليس بينى فى المسير وبينه ... سوى قَطْع يومٍ هل يكون بعيدا

وعِلْم إله الخلق يَجمعنا معاً ... كفى ذا التَّدانى ما أُريد مَزيدا

فبيَّنت كما ترى أنى قانعٌ بالاُجتماع مع مَن أُحب فى علم الله ، الذى السمواتُ والأفلاك والعوالم كلها وجميع الموجودات لا تنفصل منه ولا تتجزأ فيه ولا يشذ عنه منها شىء ، ثم اُقتصرت مِن علم الله تعالى على أنه فى زمان ، وهذا أعم مما قاله غيرى فى إحاطة الليل والنهار ، وإن كان الظاهر واحداً فى البادى إلى السامع ؛ لأن كل المخلوقات واقعة تحت الزمان ، وإنما الزمان اُسم موضوع لمرور الساعات وقَطع الفلك وحركاته وأجرامه ، والليل والنهار متولدان عن طُلوع الشمس وغروبها ، وهما متناهيان فى بعض العالَم الأعلى ، وليس هكذا الزمان ، فإنهما بعض الزمان . وإن كان لبعض الفلاسفة قولٌ إن الظل متمادٍ ، فهذا يخطئه العيان ، وعِلَلُ الردِّ عليه بيِّنة ليس هذا موضعها ، ثم بيَّنت أنه وإن كان فى أقصى المعمور من المشرق وأنا فى أقصى المَعمور من المغرب ، وهذا طول السكنى ، فليس بينى وبينه إلا مسافة يوم ؛ إذ الشمس تبدو فى أول النهار فى أول المشارق وتغرب فى آخر النهار فى آخر المغارب .

ومن القنوع فصلٌ أورده وأستعيذ بالله منه ومن أهله ، وأحمده على ماعَرَّف نفوسَنا من منافرته ، وهو أن يضل العقلُ جُملة ، ويُفسِد القريحة ، ويُتلف التمييز . ويهون الصعب ، ويُذهب الغَيرة ، ويُعدم الأنفة ، فيرضى الإنسان بالمُشاركة فيمي يحب . وقد عَرض هذا لقوم . أعاذنا الله من البلاء . وهذا لا يصح إلا مع كلْبيَّة في الطبع ، وسُقوط من العقل الذى هو عَيّار على ما تحته ، وضعف حسّ . ويؤيد هذا كله حُبٌّ شديد مُعْمٍ . فإذا اجتمعت هـذه الأشياء وتلاحقت بمزاج الطبائع ودُخول بعضها فى بعض نتج بينهما هذا الطبع الخسيس ، وتولّدت هـذه الصفة الرذلة ، وقام منها هذا الفعل المقذور القبيح ، وأما رجلٌ معه أقل همة وأيسر مروءة فهذا منه أبعدُ من الثريّا ولو مات وجداً وتقطع حُبًّا ، وفى ذلك أقول زارياً على بعض المُسامحين فى هذا الفصل :

رأيتُك رَحْبَ الصدر ترضَى بما أتَى	وأفضـــلُ شىء أن تلينَ وتَسْمحا
فحظُّكَ من بعض السوانى مُفضَّــل	على أن يحوز الملكُ من أصلها الرَّحى
وعُضْو بعير فيــه فى الوزن ضِعْف ما	تُقدِّره فى الجَدْىِ فاعصِ الذى لحا
ولعْب الذى تهوى بسَيفين مُعْجِب	فـكُنْ ناحياً فى نحوه كيفما نَحا

باب الضنى

ولا بد لـكل مُحب صادق المودّة ممنوع الوصل ، إمَّا ببَيْن وإمَّا بهَجر وإما بكتمان واقعٍ لمعني ، من أن يؤول إلى حـد السقام والضنى والنُّحول ، وربمـا أضجعه ذلك . وهذا الأمر كثير جدّا موجود أبداً ، والأعراض الواقعة من المَحبة غيرُ العلل الواقعة من هَجمات العِلل ، ويمَيزها الطبيبُ الحاذق والمتفرِّس الناقد . وفى ذلك أقول :

يقول لى الطبيبُ بغير عِلْم	تَداوَ فأنت يا هذا عليلُ
ودائى ليس يَدريه سوائى	وربٌّ قادرٌ مَلِك جليل
أأ كتُمه ويكشفه شَهيق	يُلازمنى وإطْراق طَويل

ووجهٌ شاهداتُ الحزن فيه وجِسْمٌ كالخيال ضَنٍ نَحِيل
وأثبتُ ما يكون الأمر يوماً بلا شك إذا صحّ الدليـــل
فقلتُ له أبِنْ عنِّى قليـلا فلا والله تَعْرف ما تقول
فقال أرى نُحُولاً زاد جدّا وعلّتك التى تشكو ذُبول
فقلتُ له الذُّبول تَعِلّ منه الـ ـجوارح وهى حُمَّى تَستحيل
وما أشكو لعمرُ الله حُمَّى وإنّ الحرَّ فى جسمى قليـل
فقال أرى التفاتاً وارتقاباً وأفكاراً وصَمْتاً لا يَزول
وأحسب أنها السوداء فانظُر لنفسِك إنها عَرَض ثقيـل
فقلت له كلامُك ذا مُحال فما للدّمع مِن عيني يَسيل
فأطرق باهتاً ممَّا رآه ألا فى مثل ذا بُهِت النَّبيل
فقلتُ له دوائى منـه دائى ألا فى مثـل ذا ضَلَّت عُقول
وشاهـد ما أقول يُرى عياناً فُروع النَّبت إن عُكست أصول
وترياق الأفاعى ليس شىء سواه ببُرء ما لَدغت كَفِيل

وحدثنى أبو بكر محمد بن بقىّ الحجرى ، وكان حكيم الطبع عاقلاً فهيماً ، عن رجـل من شيوخنا لا يمكن ذكره ، أنه كان ببغـــداد فى خانٍ من خاناتها فرأى أبنـة لوكيلة الخان فأحبها وتزوّجها ، فلما خلا بها نظرتْ إليـه وكانت بِكراً ، وهو قد تـكشف لبعضِ حاجته ، فراعها كبر أيره ، ففرّت إلى أمهـا وتفادت منه . فرام بها كُـلَّ من حواليها أن تردَّ إليه ، فأبت وكادت أن تموت ، ففارقها ثم ندم ، ورام أن يُراجعها فلم يُمكنه ، واستعان بالأبهرى وغيره . فلم يقدر أحد منهم على حيلة فى أمره ، فاختلط عقله وأقام فى المارستان يُعانى مدة طويلة حتى نَقِـه وسَـلاَ وما كاد ، ولقـــد كان إذا ذكرها يتنفَّس الصُّعداء .

وقد تقدَّم فى أشعارى المذكورة فى هذه الرسالة : من صفة النحول مُفرّقاً

ما استغنيتُ به عن أن أذكر هنا مِن سواها شيئاً خوفَ الإطالة . والله المعين والمستعان .

وربما ترقّت إلى أن يُغلب المرء على عقله ويحال بينه و بين ذهنه فيوسوس .

خبر :

وإنى لأعرف جارية من ذوات المَناصب والجمال والشرف من بنات القوّاد ، وقد بلغ بها حُب فتًى من إخوانى جدًّا من أبناء الكُتّاب مبلغَ هيجان المرار الأسود ، وكادت تختلط . وأشتهر الأمر وشاع جدًّا حتى علمناه وعلمه الأباعد ، إلى أن تُدوركت بالعلاج ، وهذا إنما يتولّد عن إدمان الفكر ، فإذا غلبت الفكرة وتمكن الخلط التداوى خرج الأمر عن حدّ الحُب إلى حد الوَلَه والجنون ، وإذا أغفل التداوى فى الأول إلى المُعاناة قوى جدًّا ولم يوجد له دواء سوى الوصال . ومن بعض ما كتبتُ إليه قطعة ، منها :

قد سلبتَ الفؤاد منها اختلاساً — أى خَلق يعيش دون فُؤاد
فأغثها بالوَصل تَحْىَ شريفاً — وتفُز بالثواب يومَ المَعاد
وأراها تَعتاض إنْ دام هذا — من خَلاخيلها حُلَى الأقياد
أنت حقًّا مُتيّم الشّمس حتى — عِشْقها بين ذا الورى لك بادِى

خبر :

وحدّثنى جعفر مولى أحمد بن محمد بن جدير ، المعروف بالبلبينى : أن سبب اُختلاط مروان بن يحيى بن أحمد بن جُدير وذهاب عقله اُعتلاقُه بجارية لأخيه ، فمنعها منه وباعها لغيره ، وما كان فى إخوته مثله ولا أتم أدباً منه .

وأخبرنى أبو العافية مولى محمد بن عباس بن أبى عبدة ، أن سبب جُنون يحيى ابن أحمد بن عبّاس بن أبى عبدة بَيع جارية له كان يَجد بها وجداً شديداً ، كانت أمه أباعتها وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريّات .

فهذان رجلان جليلان مشهوران فَقدا عقولهما واُختلطا وصارا فى القيود

والأغلال ، فأما مروان فأصابته ضربة مُخطئة يوم دخول البَربر قُرطبة وانتهائهم إليها ، فتوفى رحمه الله . وأما يحيي بن محمد فهو حيّ على حالته المذكورة فى حين كِتابتى لرسالتى هذه ، وقد رأيته أنا مراراً وجالسته فى القصر قبل أن يُمتحن بهذه المحنة . وكان أستاذى وأستاذه الفقيه أبو الخيار اللُّغوى . وكان يحيي لعمرى حُلوًا من الفتيانِ نبيلا .

وأما من دون هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيرا ، ولكن لم نُسمِّهم لخفائهم ، وهذه درجة إذا بلغ المشغوف إليها فقد أُنبتّ الرجاء وأُنصرم الطمع ، فلا دواء له بالوصل ولا بغيره ، إذ قد استحكم الفساد فى الدماغ ، وتَلِفت المعرفة ، وتغلبت الآفة . أعاذنا الله من البلاء بطَوْله ، وكفانا النقم بمَنِّه .

باب السلو

وقد علمنا أن كلّ ماله أول فلا بُد له من آخر ، حاشى نَعيم الله عزّ وجل ، الجنة لأوليائه وعــذابه بالنار لأعدائه . وأما أعراض الدنيا فنافذة فانية وزائلة مضمحلة ، وعاقبة كل حُب إلى أحد أمرين : إمّا أُخترام منية ، وإما سلوّ حادث . وقد نجد النفس تَغلب عليها بعضُ القُوى المصرِّفة معها فى الجسد ، فكما نجد نَفساً ترفُض الراحات والملاذ للعمل فى طاعة الله تعــالى وللرياء فى الدنيا ، حتى تشتهر بالزهد ، فكذلك نجد نفساً تنصرف عن الرغبة فى لِقاء شكلها الأنفة المستحكمة المنافرة للغدر ، أو استمرار سوء المكافأة فى الضمير ، وهذا أصح السلوّ . وما كان من غير هذين الشيئين فليس إلا مذموماً . والسلو المتولد من الهجر وطوله إنما هو كاليأس يدخل على النفس من بُلوغها إلى أملها ، فيفتر نزاعها ولا تقوى رغبتها . ولى فى ذم السلو قصيدة ، منها :

إذا ما رَنت فالحىُّ مَيْت بلَحْظها ۝ وإن نَطَقت قُلْتَ السلام رِطَاب
كأنّ الهوى ضيفٌ ألمّ بمُهجتى ۝ فلحمى طَعــام والنَّجيع شَراب

ومنهــا :

صَبور على الأَزْم الذى العزُّ خَلْفه ولو أمطرتْه بالحَريق سَحابُ
جَزُوعاً من الراحات إن أنتجت له خُمولاً وفى بعضَ النَّعيم عذاب

والسلو فى التجربة الجميلة ينقسم قسمين : سلوّ طبيعى ، وهو المسمى بالنسيان . يخلو به القلب و يفرغ به البال ، و يكون الإنسان كأنه لم يحب قط . وهذا القسم ربما لحق صاحبه الذمّ لأنه حادث عن أخلاق مذمومة ، وعن أسباب غير مُوجبة استحقاق النسيان . وستأتى مُبينة إن شاءالله تعالى . و ربما لم تلْحقه اللائمة لعذر صحيح . والثانى سلوّ تطبعى ، قَهر النفس ، وهو المسمى بالتصبر ، فترى المرء يُظهر التجلّد وفى قلبه أشد لدغاً من وخَز الإشْفَى ، ولكنه يرى بعضَ الشر أهونَ من بعض ، أو يحاسب نفسه بحُجة لا تُصرف ولا تُكْسر . وهذا قسم لا يُذم آتيه ، ولا يلام فاعله ، لأنه لا يحدُث إلا عن عَظيمة ، ولا يقع إلا عن فادحة ، إما لسبب لا يَصبر على مثله الأحرار ، و إما لخطب لا مردّ له تجرى به الأقدار . وكفاك من الموصوف به أنه ليس بناسٍ لكنه ذاكر ، وذو حنين واقف ، على العهد ، ومتجرِّع مرارات الصبر ، والفرق العامى بين المتصبر والناسى ، أنك ترى المَتصبر و إن أبدَى غاية الجَلَد وأظهر سَبَّ محبوبه والتحمل عليه ، يَحتمل ذلك من غيره . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

دعُونى وسَبِّي للحبيب فإنْنى و إن كنتُ أُبدى الهجر لستُ مُعادياً
ولكنَّ سبِّي للحَبيب كقولهم أجاد فلقَّاه الإلهُ الدواهيا

والناسي ضدّ هذا ، وكل هذا فعلى قدر طبيعة الإنسان و إجابتها وامتناعها وقُوة تمكّن الحب من القلب أو ضعفه ، وفى ذلك أقول ، وسميت السالى فيه المتصبر ، قطعة منها :

ناسِي الأحبة غيرُ من يَسلوهمُ حُكْمُ المقصِّر غير حكم المُقْصِر
ما قاصِرٌ للنفس غيرَ مُجيبها ما الصابر المَطْبوع كالمتصبِّر

والأسباب الموجبة للسلو المنقسم هذين القسمين كثيرة ، وعلى حسبها و بمقدار

الواقع منها يُعذر السالى ويُذم .

فمنها المَلل ، وقد قدمنا الكلام عليه ، وإن من كان سُلوه عن مَلل فليس حُبه حقيقة ، والمتسم به صاحبُ دعوى زائفة ، وإنما هو طالب لذة ومُبادر شهوة ، والسالى من هذا الوجه ناسٍ مذموم .

ومنها الاستبدال ، وهو وإن كان يُشبه الملل ففيه معنى زائد، وهو بذلك المعنى أقبح من الأول وصاحبه أحق بالذم .

ومنها حَياء مركَّب يكون فى المُحب يحول بينه وبين التعريض بما يجد ، فيتطاول الأمر ، وتتراخى المدة ، ويبلى جديد المودة ، ويحدُث السلو . وهذا وجه إن كان السالى عنه ناسياً فليس بمُنصف ، إذ منه جاء سببُ الحرمان ، وإن كان متصبراً فليس بملوم ، إذ آثر الحياء على لذة نفسه . وقد ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه قال : الحَياء من الإيمان والبذاء من النفاق .

وحدثنا أحمد بن محمد عن أحمد بن مطرف عن عبد الله بن يحيى عن أبيه عن مالك عن سلمة بن صَفوان الزرقى عن زيد بن طلحة بن رُكانة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لكل دين خُلق وخلق الإسلام الحياء .

فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المُحب وأُبتداؤها من قِبَله ، والذم لاصق به فى نسيانه لمن يُحب .

ثم منها أسباب أربعة هُن من قبل المحبوب وأصلها عنده ، فمنها :

الهجر ، وقد مرّ تفسير وجوهه . ولا بد لنا أن نورد منه شيئاً فى هذا الباب يوافقه ، والهجر إذا تطاول وكثُر العتاب واتصلت المفارقة يكون باباً إلى السلو ، وليس مَن وصلك ثم قَطعك لغيرك من باب الهَجر فى شىء ، لأنه الغدر الصحيح ، ولا مَن مَال إلى غيرك دون أن يتقدّم لك معه صِلةٌ مِن الهَجر أيضاً فى شىء ، إنما ذاك هو النفّار . وسيقع الكلامُ فى هذين الفصلين بعد هذا إن شاء الله تعالى .

لـكن الهجر ممن وَصَلك ثم قَطعك لتنقيل واشٍ ، أو لذنب واقع ، أو لشىء قام فى النفس ، ولم يَمِل إلا سواك ولا أقام أحداً غيرك مُقامك . والناسى فى هـذا الفصل من المُحبين ملوم دون سائر الأسباب الواقعة من المَحبوب؛ لأنه لا تقع حالة تُقيم العذر فى نسيانه ، وإنما هو راغب عن وَصلك ، وهو شىء لا يلزمه . وقد تقدّم من أذمّة الوصال وحق أيامه ، مايلزم التذكُّر ويوجب عهد الألفة ، ولـكن السالى على جهة التصبر والتجلُّد ها هنا معذور ، إذا رأى الهجر متمادياً ولم ير للوصال علامة ولا للمراجعة دلالة . وقد استجاز كثير من الناس أن يُسمُّوا هذا المعنى عذراً ، إذ ظاهرهما واحد ، ولـكن علَّتيهما مختلفتان . فلذلك فرّقنا بينهما فى الحقيقة . وأقول فى ذلك شعراً ، منه :

فـكُونوا كمن لم أدْرِ قطُّ فإنّنى كآخَر لم تَدْروا ولم تَصِلوُه
أنا كالصَّدى ما قال كُلٌّ أُجيبه فما شِئْتموه اليومَ فاعتَمِدوه

وأقول أيضاً قطعةً ، ثلاثة أبيات قلتُها وأنا نائم ، وأُستيقظت فأضفت إليها البيت الرابع :

ألاَ لله دَهْرٌ كنتُ فيـه أعزُّ علىّ من روُحى وأهلى
فما برحتْ يدُ الهِجران حتى طَواك بنانُها طىَّ السجلّ
سَقانى الصبرَ هجرُكم كما قد سَقانى الحُبَّ وصلُـكم بسَجْل
وجَدتُ الوصل أصلَ الوجد حقّا وطُولَ الهَجر أصلاً للتسلى

وأقول أيضاً قطعة :

لو قِيـل لى من قَبْل ذا أنْ سوف تَسْلو من تَودّ
لحلفتُ ألف قَسـامة لا كانَ ذا أبد الأَبَد
وإذا طويلُ الهَجر ما معه من السُّلوان بُدّ
لله هجـرُك إنه ساعٍ لبُرئى مُجتهِـد
فالآنَ أعجب للسلـوّ وكنت أعجب للجَلَد

وأرى هواك كجمرة تحت الرّماد لها مَدَد

وأقول :

كانت جهنّم فى الحَشَى من حُبكْم فلقد أراها نارَ إبراهيما

ثم الأسباب الثلاثة الباقية التى هى من قِبَل المحبوب ، فالمتصبر من الناس فيها غير مذموم . لما سنُورده إن شاء الله فى كل فصل منها .

فمنها نِفار يكون فى المَحبوب وانزواء قاطع للأطماع .

خبر :

وإنى لأخبر عنْ أنى ألفت فى أيام صباى ألفةَ المَحبة جارية نشأت فى دارنا وكانت فى ذلك الوقت بنتَ ستة عشرَ عاماً ؛ وكانت غايةً فى حُسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخَفَرها ودمَاثتها ، عديمةَ الهَزل ؛ منيعة البَذل ، بديعة البِشْر ، مُسْبلة الستر ؛ فقيدةَ الذام ، قليلة الكلام ؛ مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ؛ نقية من العيوب ، دائمة القطوب ؛ حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ؛ مليحة الصدود ، رزينة العقود ؛ كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمّها . تزدان فى المَنع والبخل ، ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد فى أمرها غير راغبة فى اللهو ، على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً . فجنحت إليها وأحببتها حبا مفرطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبنى بكلمة وأسمع مِن فيها لفظة ، غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع ، بأبلغ السَّعى فما وصلت من ذلك إلى شىء البتة ، فلعهدى بمُصطنع كان فى دارنا لبعض ما يصطنع له فى دُور الرؤساء ، تجمْعت فيه دخلتنا ودخلة أخى رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خَدمنا ، ممن يخفّ موضعه ويلطف محله ، فلبثن صدراً من النهار ثم تنقلنَ إلى قصة كانت فى دارنا مشرفة على بُستان الدار ويَطلع منها على جميع قرطبة

وفحُوصها[١] ، مفتحة الأبواب . فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن ، فإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه أنساً بقربها متعرّضاً للدنو منها ، فما هو إلا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره فى لُطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذى صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره . وكانت قد علمت كَلَفى بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً . و إذ كلهن يتنقّلن من باب إلى باب لسبب الاطّلاع من بعض الأبواب على جهات لا يُطّلع من غيرها عليها . واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مُدلج فى الآثار . ثم نزلن إلى البستان فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها فى سماع غنائها ، فأمرتها ، فأخذت العود وسوّته بخَفَر وخَجل لا عهدَ لى بمثله ، و إن الشىء يتضاعف حُسنه فى عين مُستحسنه ، ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إنى طربتُ إلى شمس إذا غرَبت ... كانت مغاربُها جوفَ المقاصيرِ

شَمْس ممثَّلة فى خُلْق جارية ... كأنّ أعطافها طيُّ الطَّوامير

ليستْ من الإنس إلا فى مُناسبة ... ولا من الجن إلا فى التّصاوير

فالوجه جوهرة والجسم عَبْهرة ... والرّيح عنبرة والكلّ من نُور

كأنها حين تَخطو فى مَجاسدها ... تخطُو على البيض أو حدّ القوارير

فلعمرى لكأن المِضراب إنما يقع على قلبى ، وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا . وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكّن من رؤيتها وسماع كلامها ، وفى ذلك أقول :

لا تَلُمها على النِّفار ومَنْع الـ ... ـوَصل ما هذا لها بنَكير

هل يكون الهلالُ غيرَ بعيد ... أو يكون الغزال غير نَفور

وأقول :

(١) فحوصها : دورها .

منعتِ جمالَ وجهك مُقلتيّا ولفظُك قد ضننتِ به عليّا
أراكِ نَذرت للرحمن صَوْمًا فلستُ تكلّمين اليوم حيّا
وقد غنّيت للعبّاس شعراً هنيئا ذا لعبّـاسٍ هنيّا
فلو يلقاك عبّاس لأضحَى لفوزٍ قانيا و بكم شَجيّـا

ثم أُنتقل أبى رحمه الله من دُورنا المحدثة بالجانب الشرقى من قرطبة فى ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيث فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدى بالخلافة . وانتقلت أنا بانتقاله ، وذلك فى جمادى الآخرة سـنة تسع وتسعين وثلثمائة ، ولم تنتقل هى بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك . ثم شُغلنا بعدَ قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباُعتداء أرباب دولته ، وامتُحنا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمّت االناس ، وخَصَّتنا ، إلى أن تُوفى أبى الوزير رحمه الله ونحن فى هذه الأحوال بعد العصر يومَ السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنتين وأربعمائة. واتصلت بنا تلك الحال بعده إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها . وقد أُرتفعت الواعية(١) ، قائمةً فى المأتم وسط النساء فى جملة البواكى والنوادب . فلقد أثارت وجداً دفيناً وحرّكت ساكناً ، وذكرتنى عهـداً قديماً وحُبًّا تليداً ودهراً ماضياً وزمناً عافياً وشهوراً خوالى وأخباراً بوالى ودهوراً فوانى وأياماً قد ذهبت وآثاراً قد دثرت ، وجـدّدت أحزانى وهيجت بلابلى ، على أنى كنت فى ذلك النهار مُرزأ مصاباً من وجوه ، وما كنت نسيت ولـكن زاد الشجى وتوقَّدت اللوعة وتأكد الحزن وتضاعف الأسف ، وأُستجلب الوجد ما كان منـه كامناً فلبّاه مجيباً . فقلت قطعة ، منها :

يُبكّى لميت مات وهو مُـكرّم ولَلْحَيّ أولى بالدّموع الذَّوارف
فيا عجباً من آسِف لامرئ ثَوى وما هو للمَقتول ظُلماً بآسف

(١) الواعية . الصراخ والصوت لا الصارخة

ثم ضرب الدهرُ ضربانَه وأجلينا عن منازلنا وتغلّب علينا جند البربر ، فخرجتُ عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة وغابت عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر ، ثم دخلت قرطبة فى شوال سنة تسع وأربعمائة ، فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك ، وما كدت أن أميزها حتى قيل لى هذه فلانة وقد تغيّر أكثر محاسنها ، وذهبت نَضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاض ذلك الماء الذى كان يُرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية ، وذبل ذلك النُّوار الذى كان البصر يقصد نحوه متنوراً ، ويرتاد فيه متخيراً ، وينصرف عنه متحيراً. فلم يبق إلا البعض المُنبىء عن الكل ، والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة أهتبالها بنفسها ، وعدمها الصيانة التى كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا ، ولتبذلها فى الخروج فيما لا بُد لها منه مما كانت تُصان وتُرفع عنه قبل ذلك . وإنما النساء رياحين متى لم تُتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يُهتبل بها استهدمت، ولذلك قال من قال : إن حسن الرجال أصدق صدقاً وأثبت أصلا وأعتق جودة لصبره على ما لو لقى بعضَة وجوهُ النساء لتغيْرت أشد التغير ، مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكنّ ، وإنى لو نلت منها أقلَ وصل وأنسِتْ لى بعض الأنس لخُولطتُ طرباً أو لمتُّ فرحاً ، ولكن هذا النفار الذى صبَّرنى وأسلانى .

وهذا الوجه من أسباب السلو صاحبه فى كلا الوجهين مَعذور وغير ملوم ؛ إذ لم يقع تثبُّت يوجب الوفاء ، ولا عهد يقتضى المُحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط تصادف يُلام على تضييعه ونسيانه .

ومنها جفاء يكون من المَحبوب ، فإذا أفرط فيه وأسرف وصادف من المُحب نفساً لها بعضُ الأنفة والعزة تسلّى ، وإذا كان الجفاء يسيراً منقطعاً أو دائماً أو كبيراً منقطعاً احتمل وأغضى عليه ، حتى إذا كثر ودام فلا بقآء عليه . ولا يلام الناسى لمن يُحب فى مثل هذا .

ومنها الغدر ، وهو الذى لا يحتمله أحد ، ولا يُغضى عليه كريم ، وهو المِسلاة حقًا . ولا يلام السالى عنه على أى وجه كان ناسياً أو مُتصبِّرًا ، بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه . ولولا أن القلوب بيـد مُقلّبها لا إله إلا هو ولا يكلّف المرء صرف قلبه ولا إحاطة استحسانه ، لولا ذاك لقلت إن المُتصبر فى سلوّه مع الغدر يكاد أن يستحق الملامة والتعنيف . ولا أدْعَى إلى السلو عند الحر النفس وذوى الحفيظة والسرىّ السجايا من الغدر ، فما يصبر عليه إلا دنىء المروءة خسيس النفس نَذْل الهمة ساقط الأنفة ، وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

هَواكِ فلستُ أقر به غُرور ... وأنت لـكل من يأتى سرورُ

وما إن تَصـبِرين على حَبيب ... فحولَك منهم عـددٌ كثير

فلو كنت الأمير لما تعاطَى ... لقـاءَكِ خوفَ جَمْعِهم الأمير

رأيتُـكِ كالأمانى ما على مَن ... يُلم بهـا ولو كَثرُوا غُرور

ولا عنهـا لمن يأتى دفاعٌ ... ولو حُشِدِ الأنام لهم نَفـير

ثم سبب ثامن ، وهو لا من المُحب ولا من المحبوب ، ولـكنه من الله تعالى ، وهو اليأس . وفروعه ثلاثة : إما موت ، وإما بين لا يرجى معه أوبة ، وإما عارض يدخل على المتحابّين بعلة المحب التى من أجلها وثق المحبوب فيغيرها.

وكل هذه الوجوه من أسباب السلو والتصبّر ، وعلى المحب الناسى فى هـذا الوجه المُنقسم إلى هـذه الأقسام الثلاثة من الغَضاضة والذم واستحقاق اُسم اللوم والغدر غيرُ قليل ، وإن لليأس لعملا فى النفوس عجيباً . وثلجاً لحرّ الأكباد كبيراً . وكل هذه الوجوه المذكورة أولا وآخراً فالتأنى فيها واجب ، والتربّص على أهلها حسن ، فيما يمكن فيه التأنى ويصح لديه التربص ، فإذا انقطعت الأطماع واُنحسمت الآمال فحينئذ يقوم العذر .

وللشعراء فنٌّ من الشعر يذمّون فيه الباكى على الدِّمن ، ويُثنون على المثابر على اللذات . وهذا يدخل فى باب السلو . ولقد أكثر الحسن بن هانىء فى هذا

الباب وافتخر به ، وهو كثيراً ما يَصف نفسه بالغدر الصريح فى أشعاره ، تحكماً بلسانه واقتداراً على القول . وفى مثل هذا أقول شعراً ، منه :

خَلِّ هذا وبادر الدهرَ وأرحل ‏ فى رياض الرُّبَى مطىَّ القفار
واحدُها بالبَديع من نغَمات الـ ‏ ـعُود كيما تُحِثّ بالمزمار
إن خيراً من الوُقوف على الدا ‏ ر وقوفُ البَنان بالأوتار
وبدا النرجسُ البديع كصبٍّ ‏ حائر الطَّرف مائلا كالمُدار
لونُه لونُ عاشق مُستهام ‏ وهو لا شكّ هائمٌ بالبَهار

ومَعاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعاً ، ومعصية الله بشرب الرَّاح لنا خلقاً ، وكساد الهمة لنا صفة ، ولكن حسبنا قول الله تعالى ، ومن أصدقُ من الله قيلاً فى الشعراء : « ألم تر أنهم فى كل وادٍ يَهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون » . فهذه شهادة الله العزيز الجبّار لهم ، ولكنّ شذوذ القائل للشعر عن مَرتبة الشعر خطأ . وكان سبب هذه الأبيات أن حفنَى العامرية ، إحدى كرائم المظفّر عبدالملك ابن أبى عامر، كَلِفتْنِي صَنعتها فأحببتُها ، وكنت أجلها ، ولها فيها صَنعة فى طريقة النشيد والبسيط رائقة جدا . ولقد أنشدتُها بعض إخوانى من أهل الأدب فقال سروراً بها : يجب أن توضع هذه فى جملة عجائب الدنيا .

فجميع فصول هذا الباب كما ترى ثمانية : منها ثلاثة هى من المحب ، أثنان منها يذم السالي فيهما على كل وجه ، وهما الملل والاستبدال ، وواحد منها يذم السالى فيه ولا يذم المُتصبر ، وهو الحياء كما قدمنا . وأربعة من المحبوب ، منها واحد يذم الناسى فيه ولا يذم المتصبر ، وهو الهجر الدائم . وثلاثة لا يذم السالى فيها على أى وجه كان ناسياً أو متصبراً ، وهى النفار والجفاء والغدر . ووجه ثامن وهو من قبل الله عز وجل ، وهو اليأس إما بموت أو بين أو آفة تزمن . والمتصبر فى هذه معذور .

وعنى أخبرك أنى جُبلت على طبيعتين لا يهنئنى معهما عيش أبداً ، وإنى لأبرم

بحياتى باُجتماعهما وأودّ التثبّت من نفسى أحياناً لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لا يشوبه تلوّن قد استوت فيه الحضرة والمغيّب، والباطن والظاهر ، تولده الألفة التى لم تَعزف بها نفسى عمّا دريتهُ ، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته ، وعزة نفس لا تَقر على الضيم ، مهتمّة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها . وإنى لأجفى فأحتمل ، وأستعمل الاناة الطويلة ، والتلوّم الذى لا يكاد يُطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر وحَمِيت نفسى تصبّرت ، وفى القلب مافيه . وفى ذلك أقول قطعة ، منها:

لى خَلّتان أذاقانى الأسَى جُرَعاً ... وَنغّصا عِيشتى وأُستهلكا جَلَدى

كِلْتاهما تَطَّبينى نحو جِبلتها ... كالصَّيد يَنْشب بين الذّئب والأسد

وفاءُ صِدْق فما فارقتُ ذا مِقَة ... فزال حُزنى عليه آخرَ الأبد

وعزّة لا يَحُل الضَّيمُ ساحَتها ... صرامةً فيه بالأموال والولد

ومما يُشبه ما نحن فيه ، وإن كان ليس منه ، أن رجلا من إخوانى كنتُ أحللته من نفسى محلَّها ، وأسقطت المؤونة بيني وبينه ، وأعددته ذخراً وكنزاً ، وكان كثير السمع من كل قائل ، فدبّ ذو النميمة بينى وبينه ، فحاكوا له وأنجح سعيهم عنده ، فانقبض عما كنت أعهده . فتربّصت عليه مدة فى مثلها أوب الغائب ، ورضى العاتب ، فلم يزدد إلا انقباضاً فتركته وحاله .

باب الموت

وربما تزايد الأمر ورقّ الطبع وعظُم الإشفاق فكان سبباً الموت ومفارقة الدنيا ، وقد جاء فى الآثار : من عَشِق فعفّ فمات فهو شهيد . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

فإن أهلك هوًى أَهلك شَهيداً ... وإن تَمْنُن بقيتُ قريرَ عَيْن

روى هذا لنا قومٌ ثِقاتٌ ... ثوَوْا بالصِّدق عن جَرْح ومَيْن

ولقد حدّثنى أبو السرىّ عمّار بن زياد صاحبنا عمن يثق به ، أن الكاتب ابن

قزمان اُمتُحن بمحبة أسلم بن عبد العزيز ، أخى الحاجب هاشم بن عبد العزيز . وكان أسلم غايةً فى الجمال ، حتى أضجره لما به وأوقعه فى أسباب المنية . وكان أسلم كثيرَ الإلمام به والزيارة له ولا عِلم له بأنه أصل دائه ، إلى أن تُوفى أسفاً ودنفاً(١) .

قال المُخبر : فأخبرتُ أسلم بعد وفاته بسبب علّته وموته فتأسّف وقال : هلا أعلمتنى؟ فقلت : ولِمَ ؟ قال : كنت والله أزيد فى صلته وما أكاد أفارقه ، فما علىّ فى ذلك ضرر . وكان أسلم هذا من أهل الأدب البارع والتفنّن ، مع حظ من الفقه وافر ، وذا بصارة فى الشعر ، وله شعر جيد ، وله معرفة بالأغانى وتصرفها ، وهو صاحب تآليف فى طرائق غناء زِرياب وأخباره ، وهو ديوان عجيب جدًّا. وكان أحسن الناس خَلقاً وخُلقا ، وهو والد أبى الجعد الذى كان ساكناً بالجانب الغربى من قرطبة .

وأنا أعلم جاريةً كانت لبعض الرؤساء فَعزف عنها لشىء بلغه فى جِهتها لم يكُن يوجب السخط ، فباعها . فجزعت لذلك جزعاً شديداً وما فارقها النُّحول والأسف ، ولا بان عن عينها الدمع إلى أن سلت ، وكان ذلك سبب موتها . ولم تَعِش بعد خروجها عنه إلا أشهراً ليست بالكثيرة . ولقد أخبرتْنى عنها اُمرأة أثق بها أنها لقيتْها وهى قد صارت كالخيال نُحولا ورقّة فقالت لها : أحسب هذا الذى بك من محبَّتك لفلان ؟ فتنفّست الصّعداء وقالت : والله لأنسيتُه أبداً ، وإن كان جفانى بلا سبب . وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيراً .

وأنا أخبرك عن أبى بكر أخى رحمه الله ، وكان متزوجاً بعاتكة بنت قند ، صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبى عامر محمد بن عامر ، وكانت التى لا مرمَى وراءها فى جمالها وكريم خلالها ، ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها . وكانا فى حدّ الصبا وتمكّن سلطانه تُغضب كلّ واحد منهما الكلمةُ التى لا قدرَ لها ،

---

(١) أى ابن قزمان .

فكانا لم يزالا فى تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام ، وكانت قد شفّها حُبه وأضناها الوجد فيه وأنحلها شدةُ كلَفِها به حتى صارت كالخيال المتوسّم دنفاً ، لا يُلهيها من الدنيا شيء ، ولا تُسَر من أموالها على عَرْضها وتكاثرها بقليل ولا كثير إذا فاتها اتفاقُه معها وسلامتُه لها . إلى أن توفى أخى رحمه الله فى الطاعون الواقع بقُرطبة فى شهر ذى القعدة سنة إحدى وأربعمائة ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، فما أنفكت منذ بانَ عنها من السّقم الدّخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام فى اليوم الذى أكمل هو فيه تحت الأرض عاماً . ولقد أخبرتنى عنها أُمها وجميعُ جواريها أنها كانت تقول بعده : ما يُقوّى صبرى ويُمسك رمقى فى الدنيا ساعةً واحدةً بعد وفاته إلا سُرورى وتيقُّنى أنه لا يضُمه وامرأة مضجع أبداً ، فقد أمنتُ هذا الذى ما كنت أتخوّف غيره ، وأعظم آمالى اليومَ اللحاق به .

ولم يكن له قبلَها ولا معها امرأة غيرها ، وهى كذلك لم يكن لها غيره ، فكان كما قدّرت . غفر الله لها ورضى عنها .

وأما خبر صاحبنا أبى عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين التميمى ، المعروف بابن الطنبى . فإنه كان رحمه الله كأنه قد خُلق الحُسن على مثاله أوخلق من نفس كل من رآه ، لم أشاهد له مثلاً حُسناً وجمالا وخُلقاً وعفة وتصاوناً وأدباً وفهماً وحلماً ووفاء وسؤدداً وطهارة وكرماً ودماثة وحلاوة ولَباقة وإغضاء وعقلا ومروءة وديناً ودراية وحِفْظاً للقرآن والحديث والنحو واللغة ، وشاعراً مُفلقاً ، حسن الخط ، وبليغاً مُفَنَّناً ، مع حظ صالح من الكلام والجدل ، وكان من غلمان أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى أستاذى فى هذا الشأن ، وكان بينه وبين أبيه أثنا عشر عامًا فى السن ، وكنت أنا وهو متقاربين فى الأسنان ، وكنا أليفين لا نفترق ، وخدنين لا يجرى الماء بيننا إلا صفاء ، إلى أن ألقت الفتنة جِرانَها وأرخت عَزاليها ووقع أنتهاب جُند البربر منازلَنا فى الجانب الغربى بقرطبة ونزولهم

فيها ، وكان مسكن أبى عبد الله فى الجانب الشرقى ببلاط مُغيث ، وتقلبت بى الأمور إلى الخروج عن قُرطبة وسُكنى مدينة المرِّية ، فكنا نتهادى النظم والنثر كثيراً . وآخر ما خاطبنى به رسالةٌ فى دَرْجها هذه الأبيات :

ليتَ شِعْرى عن حَبْلِ ودِّك هل يُمـ ـسى جديداً لدىّ غيرَ رَثِيث
وأرانى أرى مُحيَّاكَ يوماً وأناجيـك فى بَلاط مُغيث
فلو أنَّ الدِّيار يُنهضها الشَّو ق أتاك البلاطُ كالمستغِيث
ولو أن القلوب تَسطيع سَيْرًا سار قلبى إليك سَيْرَ الحثيث
كُنْ كما شِئْتَ لى فإنى مُحِبٌّ ليس لى غيرُ ذكركم مِن حديث
لك عندى و إن تناسيتَ عهدٌ فى صميم الفُؤاد غيرُ نكيث

فكُنَّا على ذلك إلى أن انقطعت دولةُ بنى مروان وقُتل سليمان الظافر أمير المؤمنين وظهرت دوله الطالبية و بُويع على بن حمود الحسنى ، المسمى بالناصر ، بالخلافة ، وتغلَّب على قُرطبة وتملَّكها واستمر فى قتاله إياها بجُيوش المتغلبين والثوار فى أقطار الأندلس . وفى إثر ذلك نكبنى خيران صاحبُ المرِّية ، إذ نقل إليه من لم يتق الله عزوجل من الباغين — وقد انتقم الله منهم — عنى وعن محمد بن إسحاق صاحبي أنا نسعى فى القيام بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ، ثم أخرجنا على جهة التَّغريب ، فصرنا إلى حصن القصر . ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هُذَيل التجيبى ، المعروف بابن المقفل ، فأقمنا عنده شهورًا فى خير دارِ إقامة ، و بين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة وأكملهم معروفًا وأتمهم سيادة . ثم ركبنا البحر قاصدين بَلنْسية عند ظهور أمير المؤمنين المُرتضى عبدالرحمن ابن محمد ، وساكنَّاه بها . فوجدت ببلنسيةّ أبا شاكر عبدالرحمن بن محمد بن موهب العَنبرى صديقنا ، فنعى إلىّ أبا عبد الله بن الطنبى وأخبرنى بموته رحمه الله . ثم أخبرنى بعد ذلك بُمديدة القاضى أبو الوليد يونس بن محمد المُرادى وأبو عمرو أحمد ابن محرز ، أن أبا بكر المُصعب بن عبد الله الأزدى ، المعروف بابن الفرضى ،

حدثهما ، وكان والد المصعب هذا قاضيَ بلنسية أيام أمير المُؤمنين المهدى ، وكان المُصعب لنا صديقاً وأخاً وأليفاً أيام طلبنا الحديث على والده وسائر شيوخ المُحدِّثين بقرطبة ، قالا : قال لنا المُصعب : سألت أبا عبد الله بن الطنبي عن سبب علّته ، وهو قد نَحل وخفيتْ محاسنُ وجهه بالضنى فلم يبق إلا عينٌ جوهرها المُخبر عن صفاتها السالفة ، وصار يكاد أن يُطيره النفس ، وقَرُب من الانحناء ، والشّجا بادٍ على وجهه ، ونحن مُنفردان ، فقال لى . نعم : أخبرك أنى كنت على باب دارى بقديد الشماس فى حين دخول علىّ بن حَمّود قرطبة ، والجيوش واردة عليها من الجهات تتسارب ، فرأيتُ فى جملتهم فتًى لم أقدر أن للحُسن صورة قائمة حتى رأيته ، فغلب على عقلى وهام به لُبى ، فسألتُ عنه فقيل لى : هذا فلان بن فلان ، من سكان جهة كذا ، ناحية قاصية عن قُرطبة بعيدة المأخذ . فيئست من رؤيته بعد ذلك . ولعمرى يا أبا بكر لافارقنى حُبه أو يوردَنى رَمْسى .

فكان كذلك ، وأنا أعرف ذلك الفتى وأدريه ، وقد رأيته لكنى أضربت عن اسمه لأنه قد مات والتقى كلاهما عند الله عز وجل . عفا الله عن الجميع .

هذا على أن أبا عبد الله ، أكرم الله نُزله ، ممن لم يكُن له وله قط ، ولا فارق الطريقة المُثلى ، ولا وطىء حَراماً قط ، ولا قارف مُنكرا ، ولا أتى منهيًّا عنه يخل بدينه ومرُوءته ، ولا قارض من جفا عليه ، وما كان فى طبقتنا مثله . ثم دخلت أنا قُرطبة فى خلافة القاسم بن حَمّود المأمون فلم أقدِّم شيئاً على قَصد أبى عمرو القاسم بن يحيى التميمى أخى عبد الله رحمه الله . فسألته عن حاله وعزّيته عن أخيه ، وما كان أولى بالتعزية عنه مني ، ثم سأَلتهُ عن أشعاره و رسائله إذ كان الذى عندى منه قد ذهب بالنّهب فى السبب الذى ذكرتهُ فى صدر هذه الحكاية ، فأخبرنى عنه أنه لما قَرُبت وفاته وأيقن بحضور المنيّة ولم يشكّ فى الموت دعا بجميع شعره و بكُتبى التى كنتُ خاطبتهُ أنا بها ، فقطعها كلها ثم أمر بدفنها . قال أبو عمرو : فقلت له : يا أخى ، دعها تبقى . فقال : إنى أقطعها وأنا أدرى أني

أقطع فيها أدباً كثيراً ، ولـكن لو كان أبو محمد بعيني حاضراً لدفعتُها إليه تكون عنده تذكرةً لمودتي ، ولـكنى لا أعلم أى البلاد أضمرته ولا أحيٌّ هو أم ميت . وكانت نـكبتى اُتصلت به ولم يعـلم مستقرى ولا إلى ما آل إليه أمرى . فمن مراثى له قصيدة ، منها :

لَئن سترتْك بُطون اللُّحود فوَجْدىَ بعدَك لاَ يستتر
قصدتُ دِيارَك قَصْد المَشُوق وللدَّهر فينا كرُور ومَرّ
فألفَيتُها منك قفراً خَلاء فأسْكَبتُ عينى عليك العِبَر

وحدثنى أبو القاسم الهَمذانى رحمه الله قال : كان معنا ببغداد أخ لعبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحون الفقيه ، الذى عليه مدارُ الفتيا بقرطبة ، وكان أعلم من أخيه وأجلَّ مقداراً ، ما كان فى أصحابنا ببغداذ مثله ، وأنه اُجتاز يوماً بدرب قُطنة فى زقاق لاينفذ ، فدخل فيه فرأى فى أقصاه جارية واقفة مكشوفة الوجه ، فقالت : له . ياهذا ، إنّ الدرب لاينفذ . قال: فنظر إليهافهام بها . قال : وانصرف إلينا فتزايد عليه أمرها ، وخشى الفتنة فخرج إلى البصرة فمات بها عشقاً رحمه الله، وكان فيما ذكر من الصالحين .

حكاية :

لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابر ، أن رجلًا أندلسيّا باع جارية، كان يَجد بها وَجْداً شديداً ، لفاقة أصابته ، من رجل من أهل ذلك البلد ، ولم يظن بائعُها أن نفســه تتبعها ذلك التتبعَ . فلما حصلت عنـد المُشترى كادت نفس الأندلسى تخرج . فأتى إلى الذى ابتاعها منه وحكَّمه فى ماله أجمـع وفى نفسه ، فأَبى عليه ، فتحمّل عليه بأهل البلدفلم يُسعف منهم أحد. فـكاد عقله أن يذهب، ورأى أن يتصدّى إلى الملك فتعرض له وصاح ، فسمعه ، فأَمر بإدخاله ، والملك قاعد فى علّية له مُشرفة عالية فوصل إليه . فلما مثل بين يديه أخبره بقصته واُسترحمه وتضرّع إليه ، فرق له الملك فأَمر بإحضار الرجل المبتاع فحضر ؛ فقال له : هذا

رجل غريب وهو كما تراه وأنا شفيعُه إليك . فأبى المُبتاع وقال : أنا أشد حُبّا لها منه وأخشى إن صرفتَها إليه أن أستغيث بك غداً وأنا فى أسوأ من حالته . فعرض له الملك وَمن حواليه من أموالهم ، فأَبى ولجّ واُعتذر بمحبته لها ، فلما طال المجلس ولم يرَوْا منه البتة جُنوحاً إلى الإسعاف قال للأندلسى : ياهــذا ، مالك بيدى أكثر مما ترى ، وقد جهدتُ لك بأبلغ سَعى ، وهو تراه يعتذر بأنه فيها أحب منك وأنه يخشى على نفسه شرًّا مما أنت فيه ، فاصبر لما قضى الله عليك . فقال له الأندلسى : فمالى بيدك حيلة ؟ قال له: وهل هاهنا غير الرغبة والبذل، ما أستطيع لك أكثر . فلما يئِس الأندلسى منها جمع يديه ورجليه واُنصب من أعلى العلية إلى الأرض . فارتاع الملك وصرخ ، فابتدر الغلمان من أسفل ، فقُضى أنه لم يتأذ فى ذلك الوقوع كبيرَ أذى ، فصُعد به إلى الملك ، فقال: ماذا اردت بهذا ؟ فقال : أَيها الملك ، لاسبيل لى إلى الحياة بعدها ثم همّ أن يرمى نفسه ثانية ، فمنع .فقال الملك : الله أكبر ، قد ظهر وجه الُحكم فى هذه المسألة ، ثم التفت إلى المشترى فقال : ياهذا ، إنك ذكرت أنك أود لها منه وتخاف أن تصير فى مثل حاله ، فقال : نعم . قال : فإن صاحبك هذا أبدى عُنوان محبته وقذف بنفسه يُريد الموت لولا أن الله عز وجل وقاه ، فأنت قُم فصحّح حبك وترامَ من أعلى هذه القصبة كما فعل صاحبك ، فإن متّ فبأجلك وإن عشتَ كنت أولى بالجارية ، إذ هى فى يدك ويمضى صاحبك عنك ، وإن أبيت نزعتُ الجارية منك رغماً ودفعتها إليه ، فتمنّع ثم قال، أترامى . فلما قرب من الباب ونَظر إلى الهوىّ تحته رجع القهقرى ، فقال له الملك : هو والله ما قلت ، فهمّ ثم نَــكل ، فلما لم يقدم قال له الملك : لاتتلاعب بنا ، يا غلمان ، خذوا بيديه واُرموا به إلى الأرض . فلما رأى العزيمة قال : أيهــا الملك ، قد طابت نفسى بالجارية . فقال له : جزاك الله خيراً . فاشتراها منه ودفعها إلى بائعها ، وانصرفا .

باب قبح المعصية

قال المُصنّف رحمه الله تعالى : وكثير من الناس يُطيعون أنفسهم و يَعصون عقولهم ، و يَتبعون أهواءهم ، و يرفضون أديانهم ، و يتجنّبون ما حضّ الله تعالى عليه ورتّبه فى الألباب السليمة من العِفّة وترك المعاصى ومُقارعة الهوى ، و يخالفون الله ربّهم ، و يوافقون إبليس فيما يُحبه من الشهوة المُعْطِبَة فيواقعون المعصية فى حُبهم . وقد علمنا أن الله عز وجل ركّب فى الإنسان طبيعتين مُتضادتين :

إحداهما لا تُشير إلا بخير ولا تحُض إلا على حسن ولا يتصوّر فيها إلا كل أمر مرضىّ ، وهي العقل ، وقائده العدل .

والثانية : ضدّ لها لا تَشير إلا إلى الشهوات ، ولا تقود إلا إلى الردى ، وهى النفس ، وقائدها الشهوة . والله تعـالى يقول : (إنّ النّفس لأمّارة بالسُّوءِ) . وكنى بالقَلب عن العقل فقال : (إنّ فى ذلك لذِكرى لمن كان له قَلْب أوْ أَلْقَى السَّمع وهو شَهيد) . وقال تعالى : (وحَبَّبَ إليكم الإيمان وزيّنه فى قُلوبكم) . وخاطب أولى الألباب .

فهاتان الطبيعتان قُطبان فى الإنسان ، وهما قُوتان من قُوى الجسد الفعّال بهما ، ومطرحان من مَطارح شُعاعات هذين الجوهرين العجيبين الرفيعين العُلويين . ففى كل جسد منهما حظّه على قدر مُقابلته لهما فى تقـدير الواحد الصمد ، تقدّست أسماؤه حين خَلقه وهيّأه . فهما يتقابلان أبداً و يتنازعان دأباً ، فإذا غلب العقل النفسَ ارتدع الإنسان وقَمع عوارضه المَدخولة واستضاء بنور الله واتبع العدل ، و إذا غلبت النفسُ العقلَ عَميت البصيرةُ ، ولم يصحّ الفرقُ بين الحسن والقبيح ، وعَظُم الالتباس وتردّى فى هُوة الرّدى ومَهواة الهَلـكة ، وبهـذا حَسُن الأمر والنهى ، ووجب الاكمال ، وصح الثواب والعقاب ، واستحق الجزاء . والروح واصل بين هاتين الطبيعتين ، ومُوصِّل ما بينهما ، وحامل الالتقاء بهما . وإن الوقوف عند حدّ الطاعة لمَعـدوم إلا بطُول الرياضة وصحة المعرفة ونفاذ التميز ، ومع ذلك

أجتناب التعرض للفِتَن ومُداخلة النـاس جملة والجلوس فى البيوت ، وبالحرىّ أن تقع السلامة المَضمونة أو يكون الرجل حَصوراً لا أرب له فى النساء ولا جارحة له تُعينه عليهن قديماً . وورد : من وَقى شر لَقْلَقه وقَبْقبه وَذبْذبه فقد وُقى شرَّ الدنيا بحذافيرها . واللقلق : اللسان . والقبقب : البطن . والذبذب : الفرج .

ولقد أخبرنى أبو حفص الـكاتب هو من ولد رَوح بن زِنباع الجذامى ، أنه سمع بعض المُتَّسمين باسم الفِقه من أهل الرواية المشاهير ،وقد سئل عن هذا الحديث فقال : القبقب : البطيخ .

وحدثنا أحمد بن محمد بن أحمد ، ثنا وَهب بن مَسرة ومحمد بن أبى دليم عن محمد بن وضّاح عن يحيي بن يحيي عن مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حـــديث طويل : مَن وقاه الله شرّ أثنتين دخـل الجنة . فسُئل عن ذلك فقال : ما بين لِحْييه وما بين رِجْليه .

وإنى لأسمع كثيرًا ممن يقول : الوفاء فى قمع الشهوات فى الرِّجال دون النساء . فأطيل العجب من ذلك ، وإنّ لى قولا لا أحول عنه : الرجال والنساء فى الُجنوح إلى هذين الشيئين سواء ، وما رجل عرضت له أمرأة جميلة بالُحب وطال ذلك ولم يكن ثم من مانع إلا وقع فى شرك الشيطان واستهوتْه المعاصى واستفزَّه الحرص وتَغوّله الطمع ، وما أمرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنتْه ، حتما مَقضياً وحكماً نافذاً لا محيد عنه ألبتة .

ولقد أخبرنى ثقةٌ صدقٍ من إخوانى من أهل التّام فى الفقه والـكلام والمعرفة ، وذو صلابة في دينه ، أنه أحب جارية نبيلة أديبة ذات جمال بارع ، قال : فعرضتُ لهـا فنفرتْ ، ثم عرضتُ فأبت . فـــلم يزل الأمر يطول وحُبها يزيد ، وهى لا تُطيع البتة ، إلى أن حملني فرطُ حبي لهـا مع عَمَى الصبي على أن نذرتُ أنى متى نلت منهـا مرادى أن أتوب إلى الله توبة صادقة . قال : فمـا مرّت الأيام

والليالى حتى أذعنتْ بعد شِماس ونفار . فقلت له : أبا فلان ، وفيتَ بعهدك ؟ فقال : إى والله ، فضحكتُ .

وذكرتُ بهذه الفَعلة ما لم يزل يتداول فى أسماعنا من أن فى بلاد البربر التى تجاور أندلسنا يتعهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره ممن أراد أن يتوب إلى الله ، فلا يُمنع من ذلك . وينكرون على من تعرّض له بكلمة ويقولون له : أتحرم رجلاً مسلماً التوبة .

قال : واعهدى بها تَبكى وتقول : والله لقد بلّغتنى مبلغاً ماخَطر قط لى ببال ، ولا قدرتُ أن أجيب إليه أحداً .

ولست أبعد أن يكون الصلاح فى الرجال والنساء موجوداً ، وأعوذ بالله أن أظن غير هذا ، وإنى رأيت الناس يَغلطون فى معنى هذه الكلمة ، أعنى الصلاح ، غلطاً بعيداً . والصحيح فى حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هى التى إذا ضُبطت انضبطت ، وإذا قُطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة هى التى إذا ضُبطت لم تَنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التى تُسَهِّل الفواحش تحيّلت فى أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يُداخل أهل الفسوق ولا يتعرّض إلى المناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشُر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويحب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة فى الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تُحرَّك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شىء .

وأما امرأة مهملة ورجل متعرض فقد هلكا وتلفا . ولهذا حُرم على المسلم الالتذاذ بسماع نغمة امرأة أجنبية . وقد جعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تأمل امرأة وهو صائم حتى يرى حَجم عظامها فقد أفطر . وإن فيما ورد من النهى عن الهوى بنصّ التنزيل لشيئاً

مُقنعاً . وفى إيقاع هذه الـكلمة ، أعنى الهوى ، أسماً على معان ، وأشتقاقها عنـد العرب ، وذلك دليل على ميل النفوس وهويّها إلى هذه المقامات . و إن المتمسك عنها مُقارع لنفسه محارب لها .

وشيء أصفه لك تراه عياناً ، وهو أنى ما رأيت قط أمرأة فى مكان تحس أن رجلًا يراها أو يسمع حسَّها إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت عنه فى غُنية ، مخالفين لـكلامها وحركتها قبل ذلك . ورأيت التهمّم لمخَارج لفظها وهيئة تقلّبها لائحاً فيها ظاهراً عليها لا خَفاء به . والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء . وأما إظهار الزّينة و تَرتيبُ المشى و إيقاع المَزح عند خُطور المرأة بالرجل وأجتياز الرجل بالمرأة فهذا أشهر من الشمس فى كل مكان . والله عز و جل يقول : (قُل للمُؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم و يَحْفَظوا فُروجهم) . وقال تقدّست أسماؤه : (ولا يَضْرِبْنَ بأَرجلهن ليُعْلَم ما يُخْفِين من زينتهنّ) . فلولا علم الله عزّ وجل برقّة إغماضهن فى السعى لإيصال حُبهن إلى القلوب ، ولُطف كيدهن فى التحيّـل لأستجلاب الهوى ، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذى ليس وراءه مرمى ، وهذا حد التعرض فـكيف بما دونه .

و لقد أطلعت من سرّ معتقد الرجال و النساء فى هذا على أمر عظيم ، وأصل ذلك أنى لم أُحسن قط بأحد ظنّا فى هذا الشأن ، مع غَيرة شديدة ركِّبت فىَّ .

و حدّثنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن أحمـد ، ثنا أحمد ، ثنا محمـد بن على بن رفاعة ، حدّثنا على بن عبـد العزيز ، حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه : أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : الغَـيْرة من الإيمـان . فلم أزل باحثاً عن أخبارهن كاشفاً عن أسرارهن، وكن قد أنسن منّى بكتمان ، فـكنَّ يُطلعننى على غوامض أمورهن . ولولا أن أكون منبهِّاً على عورات يُستعاذ بالله منها لأوردتُ من تنبههن فى السر ومكرهن فيـــه عجائب تذهل الألباب .

وإنى لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا يعلم الله وكفى به عليما أنى برىء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقى الحجزة ، وإنى أقسم بالله أجلّ الأقسام أنى ما حللت مِئزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربى بكبيرة الزنا مذ عقلتُ إلى يومى هذا . والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقى .

حدثنا القاضى أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حجاف المعافرى ، وإنه لأفضل قاض رأيته ، عن محمد بن إبراهيم الطليطلى عن القاضى بمصر بكر بن العلاء فى قول الله عز وجل : (وأمَّا بنعمة ربك فَحدّث) . أن لبعض المُتقدمين فيه قولاً ، وهو أن المُسلم يكون مخبراً عن نفسه بما أنعم الله تعالى به عليه من طاعة ربه التى هى من أعظم النعم ، ولا سيما فى المفترض على المسلمين اجتنابه واتباعه . وكان السبب فيما ذكرته أنى كنت وقتَ تأجّج نار الصبا وشِرّة الحداثة وتمكّنِ غَرارة الفُتوة مَقصوراً محظّراً علىّ بين رُقباء ورقائب ، فلما ملكتُ نفسى وعقلت صَحبتُ أبا على الحسين بن على الفاسى فى مجلس أبى القاسم عبدالرحمن بن أبى يزيد الأزدي شيخنا وأستاذى رضى الله عنه ، وكان أبو على المذكور عاقلا عاملا عالماً ممن تقدّم فى الصلاح والنسك الصحيح فى الزهد فى الدنيا والاجتهاد للآخرة ، وأحسبه كان حصوراً لأنه لم تكن له اُمرأة قط ، وما رأيت مثله جُملة عِلماً وعملا وديناً وورعاً ، فنفعني الله به كثيراً وعلمتُ موقع الإساءة وقُبح المعاصى . ومات أبو على رحمه الله فى طريق الحج .

ولقد ضمنى المبيت ليلة فى بعض الأزمان عند اُمرأة من بعض معارفى مشهورة بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتى قد ضمتها معى النشأة فى الصبا ، ثم غبت عنها أعواماً كثيرة . وكنت تركتها حين أعصرت ووجدتُها قد جرى على وجهها ماءُ الشباب ففاض وانساب ، وتفجّرت عليها ينابيع الملاحة فتردّدت وتحيرت ، وطلعتْ فى سماء وجهها نجوم الحُسن فأشرقت وتوقّدت ، وانبعث فى خدّيها أزاهير الجمال فتمّت واعتمت ، فأتت كما أقول :

خَريدة صاغها الرحمنُ من نُورٍ ... جلَّت ملاحتها عن كل تَقدير
لو جاءنى عَملى فى حسنَ صورتها ... يوم الحساب و يوم النفخ فى الصُّور
لـكنتُ أحظَى عبـاد الله كُلهم ... بالجنَّتين وقُرْب الخُرّد الُحور

وكانت من أهل بيت صباحة ، وقد ظهرت على صورة تُعجز الوصاف ، وقد طَبقّ وصفُ شبابها قُرطبة ، فبتُّ عندها ثلاث ليال متوالية ولم تحجب عنِّى على جارى العادة فى التربية . فلعمرى لقد كاد قلبي أن يصبو و يثوب إليـه مَرفوض الهوى ، و يعاوده منسىّ الغزل . ولقـد أمتنعتُ بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفاً على لُبي أن يزدهيه الاستحسان . ولقد كانت هى وجميع أهلها ممن لا تتعدَّى الأطماعُ إليهن ، ولـكن الشيطان غير مأمون الغوائل . وفى ذلك أقول :

لا تُتبع النفسَ الهَوى ... ودَع التعرضَ للمحَن
إبليس حىٌّ لم يَمُت ... والعينُ بابٌ للفتن

وأقول :

وقائلٍ لىَ هــذا ... ظَنٌّ يَزيدك غيّـا
فقلت دَع عنك لومى ... أليس إبليسُ حيّـا

وما أورد الله تعالى علينا من قِصة يوسف بن يعقوب وداود بن إيشي رُسل الله عليهم السلام إلا ليعلّمنا نُقصاننا وفاقَتنا إلى عِصمته ، وأن بِنْيتنا مدخولة ضعيفة ، فإذا كانا صلى الله عليهما وهما نبيَّان رسولان أبناء أنبياء رسل ومن أهل بيت نبوة ورسالة متكررين فى الحفظ ، مغموسين فى الولاية ، محفوفين بالـكلاءة ، مؤيدين بالعصمةِ ، لا يُجعل للشيطان عليهما سبيل ولا فُتح لوسواسه نحوهما طريق ، وبلغا حيث نَص الله عز وجل علينا فى قرءانه المنزَّل بالجبلة الموكلة والطبع البشرىّ والخِلقة الأصيلة ، لا بُتعمد الخطيئة ولا القصد إليها ، إذ النبيُّون مُبرَّؤون من كل ما خالف طاعة الله عزَّ وجل ، لـكنه أُستحسان طبيعىّ فى النفس للصور ، فمن ذا الذى يَصف نفسه بمِلْـكها و يتعاطى ضَبطها إلا بحول الله وقُوته . وأول دم سُفك

فى الأرض فدمُ أحد أبنى آدم على سبب المنافسة فى النساء . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : باعِدُوا بين أنفاس الرجال والنساء . وهـذه أمرأة من العرب تقول وقد حبلت من ذى قرابة لها حين سُئلت : ما ببطنك ياهند ؟ فقالت : قُرب الوساد وطول السواد . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

لا تَلُم مَن عَرّض النَّفس لما ليس يُرضى غيرَه عند المِحَن
لا تُقرِّب عَرفجاً من لَهب ومتى قَرَّبتـه قامت دَخَن
لا تُصرِّف ثِقــةً فى أحـد فَسد الناسُ جميعاً والزَّمن
خُلق النِّسوان للفَحْل كما خُلق الفحلُ بلا شكٍّ لهن
كُل شَـكْل يَتشهَّى شكلَه لا تـكُن عن أحد تَنْفِ الظِّنن
صِفة الصالح مَن إن صُنتَـه عن قَبيح أظهر الطَّوع الحَسن
وسواه من إذا ثقّفتـــه أعمـل الحيلة فى خَلْع الرَّسن

وإنى لأعلم فتى من أهـل الصيانة قد أُولع بهوى له ، فاجتاز بعضُ إخوانه فوجده قاعـداً مع مَن كان يُحب ، فاستجلبه إلى منزله ، فأجابه إلى منزله بأمتثال المسير بعده . فمضى داعيه إلى منزله وأنتظره حتى طال عليه التربُّص فلم يأته . فلما كان بعد ذلك أجتمع به داعيه فعدَّد عليه وأطال لومه على إخلافه موعده ، فاعتذر وورّى . فقلت أنا للذى دعاه : أنا أكشف عُذره صحيحاً من كتاب الله عز وجل إذ يقول : (ما أخلفنا موعدَكَ بمَلْـكنا ولـكنّا حُمِّلنا أوزاراً من زِينـة القوم) . فضحك مَن حضر . وكُلِّفت أن أقول فى ذلك شيئاً فقلت :

وجَرْحك لى جَرْحُ جُبَّارٍ فلا تَلُم ولـكنّ جَرحَ الُحب غـير جُبَار
وقد صارت الِخيلان وسْطَ بَياضه كنَيلوفر حَفّتـه روضُ بَهار
وكم قال لى مَن مِتُّ وجـداً بحُبه مقـالةَ مَحْلول المَقـالة زارى
وقد كَـثُرت منّى إليه مطالبٌ أُلحّ عليـه تارةً وأُدارى
أمَا فى ألتوانى ما يبرّد غُـــلّةً ويُذهب شوقاً فى ضُلوعك سارى

فقلت له لو كان ذلك لم تكُن عـداوةُ جارٍ فى الأنام لجار
وقد تتراءى العَسكران لدى الوغَى وبينهما للموت سَيْلُ بَوار

ولى كلمتان قلتهُما مُعرِّضاً بل مُصرِّحاً برجل من أصحابنا كُنَّا نعرفه كلنا، من أهل الطلب والعناية والوَرع وقيام الليل واْقتفاء آثار النسّاك وسلوك مذاهب المتصوفين القدماء باحثاً مجتهداً، وقد كنّا نتجنّب المِزاح بحضرته، فلم يمض الزمن حتى مكّن الشيطان من نفسه، وفتك بعد لباس النساك، وملك إبليس من خِطامه فسوّل له الغرور، وزين له الويل والثبور، وأجرّه رَسَنه بعد إباء. وأعطاه ناصيته بعد شماس، فخَبّ فى طاعته وأوضع، واْشتهر بعد ما ذكرته فى بعض المعاصى القبيحة الوضرة، ولقد أطلتُ ملامه وتشدّدت فى عَذله إذ أعلن بالمعصية بعد اْستتار، إلى أن أفسد ذلك ضميره علىّ، وخبثت نيته لى، وتربص بى دوائر السوء، وكان بعض أصحابنا يُساعده بالكلام اْستجراراً إليه، فيأنس به ويُظهر له عداوتى، إلى أن أظهر الله سريرته، فعلمها البادى والحاضر، وسقط من عيون الناس كلِّهم بعد أن كان مَقصدًا للعلماء ومُنتابًا للفضلاء، ورَذَل عند إخوانه جملة. أعاذنا الله من البلاء، وسترنا فى كفايته، ولا سلبنا ما بنا من نعمته. فيا سوءتاه لمن بدأ بالاْستقامة ولم يعلم أن الخذلانَ يَحل به وأن العصمة ستفارقه، لا إله إلا الله، ما أشنع هذا وأفظعه. لقد دهمته إِحدى بنات الحرس، وألقت عصاها به أم طَبق. من كان لله أولا ثم صار للشيطان آخرا، ومن إحدى الكلمتين:

أمّا الغلام فقد حانت فضيحتهُ وأنه كان مَستورًا فقد هتكا
ما زال يَضحك من أهل الهوى عجباً فالآن كل جَهول منه قد ضحكا
إليك لا تَلْحُ صَبًّا هائماً كَلِفاً يرى التهتك فى دين الهوى نُسكا
ذو مَحبر وكِتاب لا يُفارقه نحو المحدِّث يسعى حيث ماسلكا
فاعتاض من سُمر أقلام بنانَ فتىً كأنه من لُجيْن صيغ أو سُبكا

يا لائمى سَفَهاً فى ذاك قِلَّ فلَم ... تَشهد جَبينين يوم المُلتقى اُشتبكا
دَعْنى وَوِرْدِىَ فى الآبار أطلُبه ... إليـك عنى كذا لا أبتغى البر كا
إذا تعففت عَفَّ الحب عنك و إن ... تركت يوماً فإنّ اُلحب قد تَركا
ولا تَحُـلَّ من الهجران مُنعقدًا ... إلا إذا ماحللت الأُزْرَ والتِّكَكا
ولا تُصحِّح للسلطان مملـكةً ... أوتدخل البرد عن إنفاذه السِّككا
ولا بغَـير كَثير المَسح يَذهب ما ... يَعْلو الحديدَ من الأصداء إن سُبكا

وكان هذا المذكور من أصحابنا قد أحكم القراءات إحكامًا جيدًا ، واختصر كتاب الأنبارى فى الوقف والابتداء اختصارًا حسناً أُعجب به من رآه من المُقرئين ، وكان دائباً على طلب الحديث وتقييده ، والمتولى لقراءة ما يسمعه على الشيوخ المحدثين ، مثابرًا على النسخ مجتهدًا به . فلما اُمتُحن بهـذه البليّـة مع بعض الغِلمان رَفض ما كان مُعتنياً وباع أكثر كُتبه واستحال اُستحالة كلية ، نعوذ بالله من الخِذلان ، وقلت فيه كلمة وهى التالية للـكلمة التى ذكرت منها فى أول خَبره ثم تركتها .

وقد ذكر أبو الحُسين أحمـد بن يحيى بن إسحاق الرويدى فى كتاب اللفظ والإصلاح : أن إبراهيم بن سيّار النظّام رأس المعتزلة ، مع علوّ طبقته فى الـكلام وتمـكنه وتحـكمه في المعرفة ، تسبّب إلى ما حرم الله عليه من فتى نَصرانى عشقه بأن وضع له كتاباً فى تفضيل التثليث على التوحيد . فياغوثاه عياذك يارب من تولّج الشيطان ووقوع الخذلان . وقد يعظم البلاء ، وتَـكلب الشهوة ، ويهون القبيح ، ويرق الدين حتى يرضى الإنسان فى جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح ، كمثل ما دهم عُبيد الله بن يحيى الأزدى المعروف بابن الحريرى ، فإنه رضى بإهمال داره وإباحة حريمه والتعريض بأهـله طمعاً فى الحصول على بُغيته من فتى كان عَلِقه . نعوذ بالله من الضلال ونسأله الحياطة وتحسين آثارنا وإطابة أخبارنا ، حتى لقد صار المسكين حديثاً تَعمر به المحافل ، وتصاغ فيه الأشعار ، وهو

الذى تسميه العرب الدَّيوث . وهو مشتق من التدييث ، وهو التسهيل . وما بعد تسهيل من تَسمح نفسه بهذا الشأن تسهيل ، ومنه بعـير مديّث . أى مذلل . ولعمرى إن الغيرة لتُوجد فى الحيوان بالخِلْقة ، فكيف وقد أكَّدتها عندنا الشريعة ، وما بعد هذا مُصاب . ولقد كنت أعرف هذا المذكور مَستورًا إلى أن أستهواه الشيطان ونعوذ بالله من الخِذلان . وفيـه يقول عيسي بن محمد بن محمل الخولانى :

يا جاعلاً إخراج حُرِّ نسائه ... شَرَكا لصَيد جآذر الغِزْلان

إنى أَرى شَرَكاً يُمزَّق ثم لا ... تَحظى بغير مذلة الحِرمان

وأقول أنا أيضاً :

أباح أبو مروان حُرَّ نسائه ... ليبلغَ ما يهوى من الرَّشأ الفَرد

فعاتبتُه الدَّيوث فى قُبح فعله ... فأنشدنى إنشاد مُستبصر جَلد

لقد كنتُ أدركتُ المُنى غيرأنني ... يُعيِّرنى قَومى بإدراكها وَحْدى

وأقول أيضاً :

رأيت الحزيرى فيما يُعانى ... قليـلَ الرَّشاد كثيرَ السِّفاه

يَبيع ويَبتاع عِرْضاً بعِرْض ... أُمور وجدِّك ذاتُ أشتباه

ويأخذ مِيًا بإعطاء هاء ... ألا هكذا فليـكُن ذو النواهى

ويبدل أرضاً تُغذِّى النبات ... بأرض تُحف بشوك العِضاه

لقد خاب فى تَجْره ذو أبتياع ... مهبّ الرياح بمَجرى الميـاه

ولقد سمعتُه فى المسجد الجـامع يستعيذ بالله من العصمة كما يستعاذ به من الخـــذلان .

ومما يُشبه هذا أنى أذكر أنى كنت فى مجلس فيه إخوان لنا عند بعض مياسير أهل بلدنا ، فرأيت بين بعض من حَضر وبين مَن كان بالحضرة أيضاً من أهل صاحب المجلس أمرًا أنكرته وغَمزًا أستبشعته ، وخلوات الحين بعد الحين ،

وصاحب المجلس كالغائب أو النائم ، فنبهته بالتعريض فلم ينتبه، وحركته بالتصريح فلم يتحرك ، فجعلت أكرر عليه بيتين قديمين لعله يفطن . وهما هذان :

إن إخوانه المقيمين بالأمـ ... ـس أتوا للزناء لا للغناء
قطعوا أمرهم وأنت حمار ... مُوقَر من بلادة وغباء

وأكثرت من إنشادهن حتى قال لى صاحبُ المجلس: قد أمللتنا من سماعهما فتفضل بتركهما أو إنشاد غيرهما . فأمسكت وأنا لا أدرى أغافل هو أم متغافل . وما أذكر أنى عدت إلى ذلك المجلس بعدها . فقلت فيه قطعة منها :

أنت لاشك أحسن الناس ظَنًّا ... ويقينـاً ونيّةً وضَميرا
فانتبه إن بعضَ من كان بالأمـ ... ـس جليساً لنا يُعانى كبيراً
ليس كُل الرُّكوع فاعلم صلاةً ... لا ولا كُل ذى لحاظ بَصيراً

وحدّثنى ثعلب بن موسى الكلاذانى قال : حدثنى سليمان بن أحمد الشاعر قال : حدثتنى امرأة اسمها هند كنت رأيتها فى المشرق ، وكانت قد حجّت خمس حجات ، وهى من المتعبّدات المجتهدات ، قال سليمان : فقالت لى : يابن أخى ، لاتحسن الظن بامرأة قط فإنى أخبرك عن نفسى بما يعلمه الله عز وجل : ركبتُ البحر مُنصرفة من الحج وقد رفضت الدنيا وأنا خامسة خمس نِسوة ، كلهن قد حججن ، وصرنا فى مركب فى بحر القلزم ، وفى بعض ملاحى السفينة رجل مضمر الخلق مديد القامة واسع الأكتاف حسن التركيب ، فرأيته أول ليلة قد أتى إلى إحدى صواحبي فوضع إحليله فى يدها وكان ضخما جدا . فأمكنته فى الوقت من نفسها . ثم مر عليهن كلهن فى ليالى متواليات ، فلم يبق له غيرها ، تعنى نفسها ، قالت : فقلت فى نفسى : لأنتقمن منك . فأخذت موسي وأمسكتها بيدى . فأتى فى الليل على جارى عادته . فلما فعل كفعله فى سائر الليالى سقطت الموسى عليه فارتاع وقام لينهض . قالت : فأشفقت عليه وقلت له : وقد أمسكته : لازلتَ أو آخذ نصيبي منك . قالت العجوز : فقضى وطره وأستغفر الله .

لا تحسن الظن بامرأة

وإن للشعراء من لطف التعريض عن الكناية لعجباً . ومن بعض ذلك قولى حيث أقول :

أتانى وماء المُزن فى الجو يُسفَك كَمحض لجين إذ يُمدّ ويُسبك
هلال الدَّياجى انحطّ من جو أُفقه فقُل فى محب نال ماليس يُدرك
وكان الذى إن كنت لى عنه سائلا فمالى جوابٌ غير أنىَ أضحك
لفَرط سرُورى خِلْتُنى عنه نائما فيا عجباً من مُوقن يتشكك

وأقول أيضاً قطعة منها :

أتيتَنى وهلالُ الجو مُطَّلع قُبيل قَرْع النَّصارى للنَّواقيس
كحاجب الشَّيخ عَمَّ الشَّيبُ أكثره وإخمص الرِّجل فى لُطْف وتَقويس
ولاح فى الأفق قَوْس الله مُكتسياً من كل لون كأذناب الطَّواويس

وإن فيما يبدو إلينا من تعادى المُتواصلين فى غير ذات الله تعالى بعد الألفة، وتدابرهم بعد الوصال ، وتقاطعهم بعد المودة ، وتباغضهم بعد المحبة ، واستحكام الضغائن ، وتأكد السخائم فى صدورهم ، لكاشفاً ناهياً لو صادف عُقولا سليمة وآراء نافذة وعزائم صحيحة . فكيف بما أعد الله لمن عصاه من النَّكال الشديد يوم الحساب وفى دار الجزاء ، ومن الكشف على رؤوس الخلائق (يَوم تَذْهل كل مُرْضعة عما أرضعت وَتضع كُل ذات حَمل حملها وترى الناسَ سُكارى وما هم بسُكارى ولكنّ عذابَ الله شديد) . جعلنا الله ممن يفوز برضاه ويستحق رحمته .

ولقد رأيت أمرأة كانت مودتها فى غير ذات الله عز وجل . فعهدتُها أصفى من الماء وألطف من الهواء وأثبت من الجبال وأقوى من الحديد وأشد امتزاجاً من اللون فى الملون ، وأنفذ استحكاماً من الأعراض فى الأجسام ، وأضوأ من الشمس ، وأصح من العيان ، وأثقب من النجم ، وأصدق من كُدر القطا ، وأعجب من الدهر ، وأحسن من البر ، وأجمل من وجه أبى عامر ، وألذ من العافية، وأحلى

من المنى ، وأدنى من النفس ، وأقرب من النسب ، وأرسخ من النقش فى الحجر ، ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أفظع من الموت ، وأنفذ من السهم ، وأمر من السقم ، وأوحش من زوال النعم ، وأقبح من حلول النقم ، وأمضى من عقم الرياح ، وأضر من الحمق ، وأدهى من غلبة العدو ، وأشد من الأسر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار ، وأنأى من الجوزاء ، وأصعب من معاناة السماء ، وأكبر من رؤية المصاب ، وأشنع من خرق العادات ، وأقطع من فجأة البلاء ، وأبشع من السم الزعاف ، وما لا يتولد مثله عن الذحول والترات وقتل الآباء وسبى الأمهات . وتلك عادة الله فى أهل الفسق القاصدين سواه ، الآمّين غيره ، وذلك قوله عز وجل : (ياليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا لقد أضلّنى عن الذكر بعد إذ جاءنى) . فيجب على اللبيب الاستجارة بالله مما يُورط فيه الهوى . فهذا خلف مولى يوسف بن قمقام القائد المشهور ، كان أحد القائمين مع هشام بن سليمان بن الناصر ، فلما أُسر هشام وقُتل وهرب الذين وازروه فرّ خلف فى جُملتهم ونجا . فلما أتى القسطلات لم يُطق الصبر عن جارية كانت له بقُرطبة فكَرّ راجعاً . فظفر به أمير المؤمنين المهدى ، فأمر بصلبه . فلمهدى به مصلوباً فى المرج على النهر الأعظم وكأنه القُنفذ من النبل .

ولقد أخبرنى أبو بكر محمد بن الوزير عبد الرحمن بن اللّيث رحمه الله أن سبب هروبه إلى محلة البرابر أيام تحوّلهم مع سليمان الظافر إنما كان لجارية يكلَف بها تصيّرت عند بعض من كان فى تلك الناحية ، ولقد كاد أن يتلف فى تلك السفرة .

وهذان الفصلان وان لم يكونا من جنس الباب فإنهما شاهدان على مايقود إليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر ، الذى يستوى فى فهمه العالم والجاهل ، فكيف من العِصمة التي لايفهمها من ضَعُفت بصيرته . ولايقولن امرؤ : خلوت . فهو وإن انفرد فبمرأى ومسمع من علّام الغيوب (الذى يَعلم خائنة الأعين

وما تخفى الصدور) (وَ يعلم السّر وأخفى) (وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا وهو عليم بذات الصدور) وهو عالم الغيب والشهادة (ويَسْتخفْون من الناس ولا يَسْتخفون من الله وهو معهم) وقال : (ولقد خلقنا الإِنسان ونعلم ماتُوسوس به نفسه ونحن أقربُ إليه من حبل الوريد . إِذ يتلقي المُتلقيان عن اليمين وعن الشمال قَعيد . مايلفظ من قَول الالديه رَقيب عتيد) .

وليعلم المستخف بالمعاصى . المُتكل على التسويف . المعرض عن طاعة ربه أن إبليس كان فى الجْنة مع الملائكة المقرَّبين فلمعصية واحدة وقعت منه استحق لعنة الأبد وعذاب الخلد وُصير شيطاناً رجيما وأبعد عن رفيع المكان . وهذا آدم صلي الله عليه وسلم بذنب واحد أُخرج من الجنة إلى شقاء الدنيا ونَكدها . ولولا أنه تلقى من ربه كلمات وتاب عليه لكان من الهالكين . أفترى هذا المُغتر بالله رَبه وبإِملائه ليزداد إثماً يظُن أنه أكرم على خالقه من أبيه آدم الذى خلقه بيده ونَفَخ فيه من روحه وأسجد لهم ملائكته الذين هم أفضل خلقه عنده ؟ أو عقابه أعزّ عليه من عقوبته إياه ؟ كلا ، ولكن أُستعذاب التمني واستيطاء مَركب العجز وسخف الرأي قائدةٌ أصحابها إلى الوبال والخزى ، ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجر من نهى الله تعالى ولا حامٍ من غليظ عقابه لكان فى قَبيح الأحدوثة عن صاحبه وعظيم الظلم الواقع فى نفس فاعله أعظم مانع وأشد رادع لمن نظر بعين الحقيقة واتبع سبيل الرشد ، فكيف والله عز وجل يقول : (ولا يَقْتلون النفس التى حَرَّم الله إلا بالحق ولاَ يَزْنون ومن يَفْعل ذلك يلق أثاماً يُضاعف له العذابُ يوم القيامة ويُخلد فيها مهاناً) .

حدثنا الهمدانى فى مسجد القمرى بالجانب الغربى من قُرطبة سنة إحدى وأربعمائة . حدثنا ابن سبويه وأبو إسحاق البلخى بخراسان سنة خمس وسبعين

وثلاثمائة . قالا : ثنا محمد بن يوسف : ثنا محمد بن إسماعيل : ثنا قتيبة بن سعيد : ثنا جرير عن الأعمش عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل قال : قال عبد الله ، وهو ابن مسعود : قال رجل : يارسول الله ، أى الذنب أكبر عند الله ؟ قال : أن تَدْعُو لله ندا وهو خَلقك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تَقتل ولدك أن يطعم معك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك . فأنزل الله تصديقها:(والذين لايَدْعون مع الله إلهاً آخر ولا يَقْتُلون النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ولا يزنون) وقال عز وجل : (الزَّانية والزانى فاجلدوا كُلَّ واحدمنهما مائَة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفةَ فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله) .

حدثنا الهمدانى عن أبى إسحاق البلخى وابن سبويه عن محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وسعيد بن المسيب المخزوميين وأبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لايزنى الزَّانى حين يزنى وهو مؤمن . وبالسند المذكور إلى محمد بن إسماعيل عن يحيى بن بُكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أبى سلمة وسعيد بن المُسيب عن أبى هريرة قال : أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد فقال : يارسول الله ، إنى زنيت . فأعرض عنه . ثم رد عليه أربع مرات . فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أبك جُنون ؟ قال : لا . قال : فهل أحصنت ؟ قال : نعم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم . اذهبوا به فارجموه .

قال ابن شُهاب : فأخبرنى من سمع جابر بن عبد الله قال : كنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلى ، فلما أَذلقته الحجارة هَرَب فأَدركناه بالحرة فرجمناه .

حدثنا أَبو سعيد مولى الحاجب جعفر فى المسجد الجامع بقرطبة عن أَبى بكر المقرىء عن أَبى جعفر النحاس عن سعيد بن بشر عن عمرو بن رافع

عن منصور عن الحسن عن حطّان بن عبد الله الرقاشى عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : خُذوا عنى خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد ، وتغريب سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم . فيا لشُنعة ذنب أنزل الله وحيه مُبَيِّناً بالتشهير بصاحبه ، والعنف بفاعله ، والتشديد لمقترفه ، وتشدّد فى ألّا يُرجم إلا بحضرة أوليائه عقوبةَ رجمه ، وقد أجمع المسلمون إجماعاً لا ينقضه إلا مُلحد أن الزانى المُحصن عليه الرجم حتى يموت .

فيا لها قتلة ما أهولَها ، وعقوبة ما أفظعها ، وأشد عذابها وأبعدها من الإراحة وسرعة الموت .

وطوائف من أهل العلم منهم الحسن بن أبي الحسن وابن راهويه وداود وأصحابه يرون عليه مع الرجم جلد مائة ، ويحتجُّون عليه بنص القرآن وثبات السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم و بفعل علىّ رضى الله عنه بأنه رَجم أُمرأة محصنة فى الزنا بعد أن جلدها مائة . وقال : جلدتها بكتاب الله ورجمتُها بسنة رسول الله . والقول بذلك لازم لأصحاب الشافعى ، لأن زيادة العدل فى الحديث مَقبولة ، وقد صح فى إجماع الأمة المنقول بالكافة الذى يَصحبه العمل عند كل فرقة وفى أهل كل نحلة من نحل أهل القبلة ، حاشى طائفة يسيرة من الخوارج لا يُعتدّ بهم ، أنه لا يحل دم أمرىء مسلم إلا بكفر بعد إيمان ، أو نفس بنفس ، أو بمحاربة لله ورسوله يُشهر فيها سيفه و يسعى فى الأرض فساداً مقبلاً غير مدْبِر ، و بالزنا بعد الإحصان . فإن حد ما جعل الله مع الكفر بالله عز وجل ومحاربته وقَطع حُجته فى الأرض ومُنابذته دينه لجُرم كبير ومَعصية شنعاء ، والله تعالى يقول : (إن تَجْتَنبوا كَبائر ماتُنْهون عنه نُكَفِّر عنكم سيئاتكم) . (والذين يَجتنبونَ كبائر الإثم والفواحش إلاَّ اللَّمم إنَّ رَبَّك واسعُ المَغفرة) وإن كان أهلُ العلم أختلفوا فى تسميتها فكلهم مُجمع مهما أُختلفوا فيه منها أن الزنا يقدم فيها ،

لا أختلاف بينهم فى ذلك ولم يُوعد الله عز وجل فى كتابه بالنار بعد الشرك إلا فى سبع ذُنوب ، وهى الكبائر : الزنا أحدها ، وقذف المحصنات أيضاً منها ، منصوصًا ذلك كله فى كتاب الله عز وجل .

وقد ذكرنا أنه لا يجب القتل على أحد من ولد آدمُ إلا فى الذنوب الأربعة التى تقدم ذكرها . فأما الكفر منها فإنْ عاد صاحبه إلى الإسلام أو بالذمّة إن لم يكن مرتدًّا قَبل منه ، ودُرىء عنه الموت . وأما القتل فإن قَبل الولى الدية فى قول بعض الفقهاء أو عفا فى قول جميعهم سَقط عن القاتل القتل بالقصاص . وأما الفساد فى الأرض فإن تاب صاحبه قبل أن يُقدر عليه هُدر عنه القتل ، ولا سبيل فى قول أحد مؤالف أو مخالف في ترك رَجم المُحصن ، ولا وجه لرفع الموت عنه البتة .

ومما يدل على شُنعة الزنا ما حدّثنا القاضى أبو عبد الرحمن : ثنا القاضى أبو عيسى عن عبد الله بن يحيي عن أبيه يحيي بن يحيي عن الليث عن الزهرى عن القاسم بن محمد بن أبى بكر عن عبيد بن عمير : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصاب فى زمانه ناساً من هُذيل ، فخرجت جارية منهم فأتبعها رجل يُريدها عن نفسها فرمتْه بحجر فقضت كبده . فقال عمر : هـذا قتيل الله ، والله لا يودى أبداً .

وما جعل الله عز وجل فيه أربعةَ شهود وفى كل حكم شاهدين إلا حياطةً منه ألاّ تَشيع الفاحشة فى عباده ، لعظمها وشُنعتها وقبحها ، وكيف لا تكون شنيعة ومن قذف بها أخاه المُسلم أو أخته المسلمة دون صحة علم أو تيقن معرفة فقد أتى كبيرة من الكبائر أستحق عليها النار غدًا ، ووجب عليه بنص التنزيل أن تُضرب بشرته ثمانين صوتاً .

ومالِك رضى الله عنه يرى ألّا يُؤخذ فى شىء من الأشياء حد بالتعريض دون التصريح إلا فى قذف .

وبالسند المذكور عن الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد عن محمد بن عبدالرحمن عن أمه عَمرة بنت عبد الرحمن عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أمر أن يُجلد الرجل قال لآخر : ما أبى بزان ولا أمى بزانية .

فى حديث طويل وبإجماع من الأمة كلها دون خلاف من أحد نعلمه أنه إذا قال رجل لآخر : يا كافر ، أو يا قاتل النفس التى حرم الله ، لما وجب عليه حد ؛ احتياطاً من الله عز وجل إلا بثبت هذه العظيمة فى مسلم ولا مسلمة .

ومن قول مالك رحمه الله أيضاً أنه لا حد فى الإسلام إلا والقتل يغنى عنه وينسخه إلا حد القذف ، فإنه إن وجب على مَن قد وجب عليه القتل حُد ثم قتل. قال الله تعالى : (والَّذِينَ يَرْمُون المُحْصَنَاتِ ثم لم يَاتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانينَ جَلْدة ولا تَقْبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا) . وقال تعالى : (إن الذين يَرمون المُحصنات الغافلات المؤمنات لُعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الغَضب واللعنة المذكوران فى اللِّعان إنهما مُوجبتان .

حدثنا الهمدانى عن أبى إسحاق عن محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل عن عبد العزيز بن عبد الله ، قال : ثنا سليمان عن ثور بن يزيد عن أبى الغيث عن أبى هُريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : اجتنبُوا السَّبع المُوبقات. قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقــــذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وإن فى الزنا من إباحة الحريم ، وإفساد النسل ، والتفريق بين الأزواج الذى عظم الله أمره ، ما لا يهون على ذى عقل أو من له أقل خَلاق ، ولولا مكان هذا العُنصر من الإنسان وأنه غير مأمون الغالبة لما خفّف الله عن البِكْرين وشـدد على المحصنين . وهذا عندنا وفى جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عز وجل

حُكماً باقياً لم يُنسخ ولا أزيل ، فيترك الناظر لعباده الذى لم يَشغله عظيم ما فى خَلقه ولا يحيف قدرته كبير ما فى عوالمه عن النظر لحقير ما فيها ، فهو كما قال عز وجل : (الحىُّ القيُّومُ لا تأْخُذه سِنةٌ ولا نَوْم) . وقال : (يَعْلَم ما يَلِج فى الأرض وما يَخْرُج منها وما يَنزل من السماء وما يَعْرُج فيها) . وقال : (عالم الغيب لا يعزُب عنه مِثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) .

وإن أعظم ما يأتى به العبد هَتك ستر الله عزّ وجل فى عباده . وقد جاء فى حكم أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى ضَربه الرجل الذى ضَم صبيّا حتى أمنى ضرباً كان سبباً للمنيّة . ومن إعجاب مالك رحمه الله باُجتهاد الأمير الذى ضرب صبيّا مكّن رجلا من تَقبيله حتى أمنى الرجل ، ضربه إلى أن مات ، ما ينسى شدة دواعى هذا الشأن وأسبابه . والتزيّد فى الاجتهاد ، وإن كنا لا نراه فهو قول كثير من العلماء يتبعه على ذلك عالمَ من الناس . وأما الذى نذهب إليه فالذى حدّثناه الهمدانى عن البلخى عن البخارى عن الفربرى عن البخارى قال : ثنا يحيى بن سليمان ، ثنا ابن وهب قال : أخبرنى عمرو أن بكيرًا حدثه عن سليمان بن يسار عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه عن أبى بردة الأنصارى قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يُجلد فوق عشرة أسواط إلا فى حَد من حدود الله عز وجل .

وبه يقول أبو جعفر محمد بن على النسائى الشافعى رحمه الله .

وأما فعل قوم لوط فشنيع بشيع . قال الله تعالى : (أتأتُون الفاحشةَ ما سَبقكم بها مِن أحدٍ من العالمين) . وقد قذَف الله فاعليه بحجارة من طِين مسوّمة . ومالك رحمه الله يرَى على الفاعل والمَفعول به الرَّجم أُحصنا أو لم يُحصنا . واحتج بعض المالكيين فى ذلك بأن الله عز وجل يقول فى رجمه فاعليه بالحجارة : وما هى من الظالمين ببعيد . فوجب بهذا أنه من ظلم الآن بمثل فعلهم قربت منه .

والخلاف فى هذه المسألة ليس هذا موضعه . وقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم بن السرى أن أبا بكر رضى الله عنه أحرق فيه بالنـار . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى اسم المحرق فقال : هو شجاع بن ورقاء الأسدى أحرقه بالنار أبو بكر الصديق لأنه يُؤتى فى دُبره كما تؤتى المرأة .

وان عن المعاصى لمذاهب للعقل واسعة ، فمـا حرم الله شيئاً إلا وقد عوض عباده من الحلال ما هو أحسن من المحرم وأفضل ، لا إله إلا هو .

وأقول فى النهى عن اتباع الهوى على سبيل الوعظ :

أقول لنفسى ما مُبين كحالكٍ	وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالك
صُن النفس عمّا عابها وارفُض الهوى	فإن الهَوى مِفْتاح بابِ المهالك
رأيتُ الهَوى سهلُ المَبادى لذيذها	وعُقباه مُرّ الطعم ضَنك المسالك
فما لذّة الإنسان والموت بعـدها	ولو عاش ضِعْفَى عُمر نوح بن لامَك
فلا تَتبع داراً قليـلاً لباثهـا	فقد أنذرتنا بالفَناء المُواشك
وما تركُها إلا إذا هى أمكنت	وكم تاركٍ إضماره غـير تارك
فما تارك الآمال عُجباً جُؤاذراً	كتاركها ذات الضُّروع الحواشك
وما قابل الأمر الذى كان راغباً	بشَهوة مُشتاق وعقـل مُبارك
لأجدى عبـاد الله بالفوز عنده	لدى جَنة الفِردوس فوق الأرائك
ومن عَرف الأمر الذى هو طالب	رأى سَبباً ما فى يَدى كل مالك
ومن عَرف الرحمن لم يَعْص أمرَه	ولو أنه يُعطى جميعَ المَمالك
سبيلُ التّقى والنسك خيرُ المسالك	وسالـكها مُستبصر خيرُ سالك
فما فقد التّنغيص من عاج دونها	ولا طاب عيشٌ لأمرى غير سالك
وُطوبى لأقوام يَؤُمون نحوها	بخِفّـة أرواح ولِين عرائك
لقد فَقدوا غلّ النفوس وفُضّلوا	بعز سلاطين وأمن صَعالك
فعاشوا كما شاءوا وماتوا كما اشتهوا	وفازوا بدار الخُلد رحب المَبارك

عَصوا طاعة الأجساد فى كل لذة … بنُور محل ظُلمة الغى هاتك
فلولا اعتداد الجسم أيقنت أنهم … يعيشون عَيشاً مثل عيش الملائك
فيا ربّ قدِّمهم وزِدْ فى صلاحهم … وَصلِّ عليهم حيثُ حَلَّوا وبارك
ويا نفس جدِّى لا تملِّى وشمِّرى … لَنيل سُرور الدهر فيما هُنالك
وأنت متى دمّرت سعيك فى الهوى … علمت بأن الحق ليس كذلك
فقد بيَّن الله الشريعةَ للورَى … بأبين من زُهر النُّجوم الشَّوابك
فيا نفس جِدِّى فى خلاصك وأنفذى … نفاذَ السيوف المُرهفات البواتك
فلو أعمل الناس التفكّر فى الذى … له خُلقوا ما كان حى بضاحك

باب فضل التعفف

ومن أفضل ما يأتيه الإنسان فى حُبه التعفف ، وترك ركوب المعصية والفاحشة ، وألاّ يرغب عن مُجازاة خالقه له بالنعيم فى دار المقامة ، وألاّ يعصى مولاه المتفضل عليه الذى جعل له مكاناً وأهلاً لأمره ونهيه . وأرسل إليه رسله وجعل كلامه ثابتاً لديه ، عناية منه بنا وإحساناً إلينا . وإن من هام قلبُه وشُغل باله واُشتد شوقه وغظُم وجده ثم ظفر فرام هواه أن يغلب عقله وشهوته ، وأن يقهر دينه ، ثم أقام العدل لنفسه حصناً ، وعلم أنها النفس الأمارة بالسوء ، وذكّرها بعقاب الله تعالى وفكر فى اُجترائه على خالقه وهو يراه ، وحذرها من يوم المعاد والوقوف بين يدى الملك العزيز الشديد العقاب الرحمن الرحيم الذى لا يحتاج إلى بينة ، ونظر بعين ضميره إلى انفراده عن كل مدافع بحضرة علاّم الغيوب (يوم لا ينفع مالٌ ولاَ بنون إلا مَن أتى الله بقَلْب سَليم) . (يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات) . (يوم تَجِد كُل نفس ما عَمِلت من خيْر مُحْضرا وما عَمِلت من سُوء تودّ لو أن بينها و بينه أمداً بعيدًا) . يوم (وعَنت الوُجوه للحى القَيوم وقد خاب من حَمَل ظلماً) . يوم (ووَجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربُّك أحداً) يوم الطامّة الكبرى ، (يوم يتذكَّر الإنسان ما سَعى وبرزت

الجحيم لمن يَرى فأما من طَغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربّه ونَهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) واليوم الذى قال الله تعالى فيـه : (وكلّ إنسان ألزَمْناه طائِرَة فى عُنقه ونُخْرج له يومَ القيامة كِتاباً يَلْقاه مَنْشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) عندها يقول العاصى : يا ويلَتي ! ما لهذا الكِتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فكيف بمن طُوى قلبه على أحرّ من جَمر الغضى . وطُوى كشحه على أحد من السيف ، وتجرّع غَصصاً أمر من الحنظل ، وصرف نفسه كرهاً عما طمعت فيه وتيقّنت ببلوغه وتهيأت له ولم يحل دونها حائل ، لحرىّ أن يُسرَّ غداً يوم البعث ويكون من المُقربين فى دار الجزاء وعالم الخلود ، وأن يأمن رَوعات القيامة وهَول المَطلع ، وأن يُعوِّضه الله من هذه القَرحة الأمنَ يوم الحشر .

حدّثنى أبو موسى هارون بن موسى الطبيب قال : رأيت شابًّا حَسن الوجه من أهل قُرطبة قد تعبَّد ورَفض الدنيا ، وكان له أخ فى الله قد سقطت بينهما مَؤونة التحفّظ ، فزاره ذات ليله وعزم على المبيت عنده ، فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبُعد عن منزله . فنهض لها على أن ينصرف مُسرعاً . ونزل الشاب فى داره مع امرأته ، وكانت غايةً فى الحسن وترباً للضيف فى الصبى ، فأطال رب المنزل المقام إلى أن مشي العَسس ولم يُمكنه الانصراف إلى منزله ، فلما علمت المرأة بفَوات الوقت وأن زوجها لا يمكنه المجىء تلك الليلة تاقت نفسها إلى ذلك الفتى فبرزت إليه ودعته إلى نفسها ، ولا ثالث لهما إلا الله عز وجل ، فهمّ بها ثم ثاب إليه عقلُه وفكّر فى الله عز وجل فوضع إصبعه على السراج فتفقّع ثم قال : يا نفس ، ذوقي هذا وأين هذا من نار جهنم . فهال المرأة ما رأت ، ثم عاودته فعاودته الشهوة المركّبة فى الإنسان فعاد إلى الفعلة الأولى . فانبلج الصباح وسبّابته قد اصطلمتها النار .

أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفرط شهوة قد كلبت عليه ؟ أو ترى

أن الله تعالى يضيّع له المقام ؟ كلا إنه لأ كرم من ذلك وأعلم .

ولقد حدَّثتنى أُمرأة أثق بها أنها عَلِقها فتى مثلهـا من الُحسن وعلقته وشاع القولُ عليهما ، فاُجتمعا يوماً خاليين فقال : هلمى نحقق ما يقال فينا . فقـالت : لا والله لا كان هـذا أبداً . وأنا أقرأ قول الله : (الأخلاَّء يومئذ بعضُهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين) . قالت. فما مَضى قليل حتى اجتمعا فى حلال .

ولقد حدثنى ثقة من إخوانىأنه خلا يوماً بجارية كانت له مفارِكة فى الصبى ، فتعرضت لبعض تلك المعانى ، فقال لها : كلا ، إن من شُـكر نعمة الله فيما مَنحنى من وصالك الذى كان أقصى آمالى أن أجتنب هواى لأمره . ولعمرى إن هـذا لغريب فيما خلا من الأزمان ، فـكيف فى مثل هذا الزمان الذى قد ذهب خيره وأتى شره .

وما أقدر فى هذه الأخبار — وهى صحيحة — إلا أحد وجهين لاشك فيهما :

إما طبع قد مال إلى غيرهذا الشأن واستحكمت معرفته بفضل سواه عليهفهو لا يُجيب دواعى الغزل فى كلمة ولا كلمتين ولا فى يوم ولا يومين ، ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما اُمتحنوا به لجادت طباعُهم وأجابوا هاتف الفِتنة ، ولـكن الله عصمهم بانقطاع السبب الُمحرّك نظراً لهم وعلماً بمـا فى ضمائرهم من الاُستعاذة به من القبائح ، واُستدعاء الرشد . لا إله إلا هو .

وإما ببصيرة حضرت فى ذلك الوقت ، وخاطر تجرد اُنقمعت به طوالع الشهوة في ذلك الحين ، لخير أراد الله عز وجل لصاحبه . جعلنا الله ممن يخافه ويرجوه . آمين .

وحدّثنى أبوعبد الله محمد بن عمرو بن مضاء عن رجال من بني مروان ثقات يَسندون الحديث إلى أبى العباس الوليد بن غانم أنه ذكر أن الإمام عبد الرحمن ابن الحـكم غاب فى بعض غزواته شهوراً وثقَّف القصر بابنه محمدالذى ولى الخلافة بعده ورتَّبه فى السطح وجعل مَبيته ليلاً وقعوده نهارًا فيه ، ولم يأذن له فىالخروج

البتة . ورتّب معه في كل ليلة وزيراً من الوزراء وفتى من أكابر الفتيان يبيتان معه فى السطح . قال أبو العباس : فأقام على ذلك مدة طويلة وبُعد عهده بأهله وهو فى سن العشرين أو نحوها ، إلى أن وافق مَبيتى فى ليلتى نوبة فتى من أكابر الفتيان ، وكان صغيراً فى سنه وغاية فى حسن وجهه . قال أبو العباس : فقلت فى نفسي : إنى أخشى الليلة على محمد بن عبد الرحمن الهلاك بمُواقعة المعصية وتزيين إبليس وأتباعه له . قال : ثم أخذت مضجعى فى السطح الخارج ومحمد فى السطح الداخل المُطل على حرم أمير المؤمنين ، والفتى فى الطرف الثانى القريب من المطلع فظللْت أرقبه ولا أغفل وهو يظن أنى قد نِمْت ولا يشعر باطلاعى عليه . قال : فلما مضى هزيع من الليل رأيتُه قد قام واستوى قاعداً ساعةً لطيفة ثم تعوّذ من الشيطان ورجع إلى مَنامه . ثم قام بعد حين ولَبِس قميصه واستوفز ثم نزَعه عن نفسه وعاد إلى منامه . ثم قام الثالثة ولَبِس قميصه ودلّى رجليه من السرير وبقى كذلك ساعةً ثم نادى الفتى باُسمه فأجابه ، فقال له : انزل عن السطح وأبق فى الفصيل الذى تحته . فقام الفتى مؤتمراً له . فلما نزل قام محمد وأغلق الباب من داخله وعاد إلى سريره . قال أبو العباس : فعلمت من ذلك الوقت أن لله فيه مراد خير .

حدثنا أحمد بن محمد بن الجسور عن أحمد بن مطرف عن عبيد الله بن يحيي عن أبيه عن مالك عن حبيب بن عبد الرحمن الأنصارى عن حفص بن عاصم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : سبعة يُظلهم الله فى ظله يوم لا ظِلّ إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبُه معلّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابّا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرّقا ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته أمرأة ذات حسب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدّق صدقة فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) .

وإنى أذكر أنى دعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صورتَه وتألف القلوب أخلاقه ، للحديث والمجالسة دون منكر ولامكروه ، فسارعت إليه وكان هذا سحراً . فبعد أن صليت الصبح وأخذت زيّى طَرقنى فكر فسنحت لى أبيات ، ومعى رجل من إخوانى فقال لى : ما هذا الإطراق ؟ فلم أجبه حتى أكملتها ، ثم كتبتها ودفعتها إليه وأمسكت عن المسير حيث كنت نويت . ومن الأبيات :

أراقك حُسنٌ غَيبُه لك تَأْرِيقُ   وتَبريد وَصْل سرُّه فيك تَحْرِيقُ
وقُرب مَزار يَقتضى لك فُرقة   وشيكاً ولولا القُرب لم يك تَفْريق
ولذّة طعم مُعقب لك عَلْقماً   وصاباً وفَسْح فى تَضاعيفه ضِيق

ولو لم يكن جزاء ولا عقاب ولا ثواب لوجب علينا إفناء الأعمار وإتعاب الأبدان وإجهاد الطاقة واستنفاد الوسع واستفراغ القوة فى شكر الخالق الذى ابتدأنا بالنعم قبل استئهالها ، وامتنّ علينا بالعقل الذى به عَرفناه ، ووهبنا الحواس والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات ، وصرف لنا السموات جارية بمنافعها ، ودبرنا التدبير الذى لو ملكنا خلقنا لم نهتد إليه، ولا نظرنا لأنفسنا نظره لنا ، وفضّلنا على أكثر المخلوقات ، وجعلنا مستودع كلامه ومستقر دينه ، وخلق لنا الجنة دون أن نستحقها ، ثم لم يرض لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكون واجبةً لهم ، قال الله تعالى : (جزاء بما كانوا يَعملون) . ورشَدنا إلى سبيلها وبَصّرنا وجه ظِلّها ، وجعل غاية إحسانه إلينا وامتنانه علينا حقّا من حقوقنا قبله ، ودينا لازماً له ، وشكرنا على ما أعطانا من الطاعة التي رزقنا قواها ، وأثابنا بفضله على تفضّله .

هذا كرم لا تهتدى إليه العقول ، ولا يمكن أن تكيّفه الألباب . ومن عرف ربّه ومقدار رضاه وسخطه هانت عنده اللذات الذاهبة والحطام الفانى ، فكيف وقد أتى من وعيده ما تقشعرّ لسماعه الأجساد ، وتذوب له النفوس ، وأورد علينا من عذابه ما لم يَنته إليه أمل فأين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم ،

وما الرغبة فى لذة ذاهبة لا تذهب الندامة عنها ، ولا تفني التباعة منها ، ولا يزول الخزى عن راكبها ، وإلى كم هذا التمادى وقد أسمعنا المنادى ، وكأن قد حدا بنا الحادى إلى دار القرار ، فإما إلى جنة وإما إلى نار ، ألا إن التثبط فى هذا المكان لهو الضلال المُبين . وفى ذلك أقول :

أقْصَرعن لهوه وعن طَربه ... وعفّ فى حُبه وفى عُرَبه
فليس شُرْب المُدام هِمّته ... ولا اُقتناص الظباء من أربه
قد آن للقَلب أن يُفيق وأن ... يُزيل ما قد عَلاه من حُجبه
ألهاه عمّا عهدتُ يُعجبه ... خيفةُ يوم ٍ تُبلى السرائر به
يانفس جدّى وَشمّرى وَدعِى ... عنك اُتباع الهوَى على لَغَبه
وَسارعى فى النّجاة وَاُجتهدى ... ساعيةً فى الخلاص من كُربه
علِّيَ أحظى بالفوز فيه وَأن ... أنجوَ من ضِيقه وَمن لَهبه
يأيها اللاعب المُجد به ال ... دّهر أما تتقّى شَبا نكبه
كفاك من كُل ما وُعظت به ... ما قد أراك الزّمان من عَجبه
دع عنك داراً تفنى غَضارتها ... ومَكسْباً لاعباً بمُكتسبه
لم يَضْطرب في مَحلّها أحد ... إلا نبا حدّها بمُضطربه
من عَرف الله حقّ معرفة ... لوى وحلّ الفؤاد فى رَهبه
ما مُنقضِى المُلكِ مثلَ خالده ... ولا صَحيح التقى كمُؤْتشبه
ولا تقيّ الورى كفاسِقهم ... وليس صِدْق الكلام مِن كَذبه
فلو أمنّا مِن العقاب وَلم ... نَخش من الله مُتّقَى غَضَبه
ولم نَخف نارَه التى خُلقت ... لكل جانِى الكلام مُحتقبه
لكان فَرضا لزومُ طاعته ... ورَدُّ وَفد الهوى على عَقبه
وصحّة الزهد في البَقاء وأن ... يَلحق تفنيدنا بمُرتقبه
فقد رأينا فعلَ الزمان بأهـ ... له كفعل الشُوّاظ فى حَطبه

كم مُتعِبٍ فى الإِله مُهجته ... راحتُه فى الكريه من تَعبه
وطالب باُجتهاده زهر الـ ... ـدنيا عَداه المَنون عن طَلبه
ومُدرك ما اُبتغاه ذى جَدل ... حلّ به ما يَخاف من سَببه
وباحث جاهد لبُغيته ... فإنما بحثُه على عَطبه
بينا ترى المَرء سامياً مَلِكاً ... صار إلى السُّفل من ذُرى رُتبه
كالزَّرع للرّجل فوقه عمل ... أن يَنم حُسن النُّمو فى قَصبه
كم قاطع نفسَه أسًى وشجاً ... فى إثر جـدٍّ يجدّ فى هَربه
أليس فى ذاك زاجر عَجب ... يزيد ذا اللّب فى حُلى أدبه
فكيف والنار للمُسىء إذا ... عاج عن المُستقيم من عَقبه
ويوم عَرْض الحساب يفْضحه الـ ... ـله ويُبدى الخفىّ من رِيبَه
من قد حَباه الإِله رحمتَه ... موصولةً بالمَزيد من نَشبه
فصار من جهله يصرِّفها ... فيما نَهى الله عنه فى كُتُبه
أليس هذا أحرى العباد غداً ... بالوقْع فى وَيله وفى حَرَبه
شكراً لربٍّ لطيفٌ قُدرته ... فينا كحبل الوَريد فى كَثَبه
رازق أهل الزمان أجمعهم ... مَن كان مِن عُجمه ومِن عَربه
والحمدُ لله فى تفضّله ... وقَمعه للزّمان فى نوبه
أخدمنا الأرضَ والسماء ومن ... فى الجو مِن مائه ومن شُهبه
فاسمع ودَعْ مَن عصاه ناحيةً ... لا يحمل الحملَ غيرُ مُحتطبه

وأقول أيضاً :

أعارتك دنيا مُستردّ مُعارها ... غَضارة عيش سوف يذوى اُخضرارُها
وهل يتمنّى المُحكم الرأى عيشةً ... وقد حان من دُهم المَنايا مَزارها
وكيف تلذّ العينُ هجعةً ساعة ... وقد طال فيما عاينته اُعتبارُها
وكيف تقَرّ النفس فى دار نُقلة ... قد استيقنتْ أن ليس فيها قَرارها

وأنّى لها في الأرض خاطرُ فكرة ... ولم تَدْر بعــد الموت أين مَحارها

أليس لها فى السعى للفَوز شاغلٌ ... أما فى توقِّيها العذابَ أزدجارها

فخابت نفوسٌ قادها لهوُ ساعة ... إلى حرّ نار ليس يُطْفَى أُوارها

لها سائق حادٍ حَثيث مُبادر ... إلى غير ما أضحى إليـه مدارُها

تُراد لأمر وهى تَطلب غيره ... وتَقْصِد وجهاً فى سواه سفارُها

أمُسرعة فيما يَسوء قيـامُها ... وقد أيقنتْ أنّ العذاب قُصارها

تعطّـل مفروضاً وتعني بفَضلة ... لقــد شفّها طُغيانها واغترارها

إلى ما لهـا منه البلاءُ سكونُها ... وعمّا لهـا منه النجاحُ نفارها

وتُعرض عن ربّ دعاها لرُشدها ... وتَتبع دُنيا جدّ عنها فِرارها

فيأيها المَغرور بادِرْ بِرَجعـة ... فلله دارٌ ليس تَخْمُد نارها

ولا تتخيَّر فانياً دون خالدٍ ... دليلٌ على محض العُقول اختيارها

أتعلم أنّ الحقَ فيما تركـته ... وتَسلك سُبـلاً ليس يَخفى عَوارها

وتترك بَيضاء المَناهج ضلّةً ... لبَهماء يُؤْذى الرِّجْل فيها عثارها

تُسرّ بلهو مُعْقِب بندامة ... إذا ما انقضى لا يَنقضى مُستثارها

وتُفنى الليالى والمَسرّات كلّها ... وتَبقى تِباعات الذّنوب وعارها

فهل أنت يامَغبون مُستيقظ فقد ... تبين من سرّ الخُطوب استتارها

فعجِّل إلى رضوان ربّك واجتنب ... نَواهيه إذ قد تجلى منارها

يجد مُرور الدهر عنـك بلاعب ... وتُغرى بدُنيا ساء فيك سِرارها

فكم أمةٍ قد غرّها الدهر قبلنـا ... وهاتيك منها مُقفرات ديارها

تذكّـر على ما قد مضى واعتبر به ... فإن المُذكّى للعقول اعتبارها

تحامَى ذَراها كلّ باغ وطالب ... وكان ضماناً فى الأعادى انتصارها

توافت ببطن الأرض وانشت شملُها ... وعاد إلى ذى ملـكة استعارها(١)

---

(١) كذا فى الأصول .

وكم راقد في غفلة عن منيّة ... مشمرةٌ في القصد وهو سعارها
وَمَظلمة قد نالها متسلط ... مُدِلّ بأيدٍ عند ذي العرش ثارها
أراك إذا حاولت دُنياك ساعياً ... على أنها بادٍ إليك أزورارها
وفي طاعة الرحمن يُقعدك الونى ... وتُبدى أناة لايصح اعتذارها
تُحاذر إخواناً ستفنى وتنقضى ... وتنسى التي فرضٌ عليك حِذارها
كأني أرى منك التبرّم ظاهراً ... مُبيناً إذا الأقدار حلّ اضطرارها
هناك يقول المرء مَن لي بأعصر ... مَضت كان مِلْكاً في يدىّ خِيارها
تنبّه ليوم قد أظلّك وِرْدُه ... عَصِيب يوافى النفس فيها احتضارها
تَبرّأ فيه منك كل مُخالط ... وإنّ من الآمال فيه انهيارها
فأُودعت في ظلماء ضَنْك مقرُّها ... يلوح عليها للعيون أغبرارها
تنادى فلا تَدرى المُنادى مُفرداً ... وقد حُط عن وجه الحَياة خِمارها
تُنادى إلى يوم شديد مُفزع ... وساعة حَشر ليس يخفى اشتهارها
إذا حُشرت فيه الوُحوش وجُمّعت ... صحائفنا وأنثال فينا انتشارها
وزُينت الجنّات فيه وأزلفت ... وأذكى من نار الجحيم استعارها
وكُوّرت الشمس المنيرة بالضُّحى ... وأسرع من زُهر النجوم انكدارها
لقد جلّ أمر كان منه انتظامها ... وقد حَلّ أمر كان منه انتثارها
وسُيرت الأجبال والأرض بُدِّلت ... وقد عُطِّلت من مالكيها عِشارها
فإما لدار ليس يفنى نعيمُها ... وإما لدارٍ لا يُفك إسارها
بحضرة جبّار رفيق مُعاقب ... فتُحصى المعاصى كبرُها وصِغارها
ويَندم يوم البعث جانى صِغارها ... وتُهلك أهليها هناك كِبارها
ستُغبط أجساد وتُحيا نفوسها ... إذا ما استوى إسرارها وجِهارها
اذا حَفّهم عفو الإله وفضلُه ... وأسكنهم داراً حلالاً عُقارها
سيلحقهم أهل الفسوق اذا استوى ... بحَلْبة سَبق طرفُها وحمارها

يغرّ بنو الدنيـا بدُنياهمُ التى … يُظَنّ على أهل الحُظوط اقتصارها
هى الأم خيرُ البرّ فيها عقوقُها … وليس بغير البذل يُحمَى ذمارها
فما نال منها الحظ إلا مهينها … وما الملك إلا قربهـا واعتمارها
تهـافت فيها طامع بعد طامع … وقـد بان للُّب الذكىّ اختبارها
تطامنْ لغمر الحادثات ولا تـكُن … لهـا ذا اعتمار يجتنبك غمارها
و إياك أن تغترّ منها بمـا ترَى … فقد صَحّ فى العقل الجلىّ عيارها
رأيتُ مُلوك الأرض يبغون عُدة … ولذة نفس يُستطاب اجترارها
وخلُّوا طريق القَصد فِى مُبتغاهمُ … لمُتبعه الصفار جَمّ صَغارها
وان التى يَبغون نَهْج بقيـة … مكين لطُلاّب الخلاص اختصارها
هـل العزّ إلا همة صحّ صونُها … إذا صان همّات الرجال انكسارها
وهل رابح إلا امرؤ متوكّل … قنوع غنىّ النفس بادٍ وَقارها
و يلقى ولاة الملك خوفاً وفـكرة … تَضيق بها ذَرعاً وَ يفنى اصطبارها
عياناً نرى هذا ولـكنّ سكرةً … أحاطت بنا ما إن يُفيق خُمارها
تدبّر مَن البانى على الأرض سقفَها … وفى عِلمـه مَعْمورها وقفارها
وَمن يمسك الأجرام والأرض أمرُه … بلا عَمَد يُبنى عليـه قرارها
ومن قَدَّرَ التدبير فيها بحكمةٍ … فصحّ لديهـا ليلُها ونهارها
ومن فَتَق الأمواه فى صُفح وجهها … فمنها يغـذّى حَبّها وثمـارها
ومن صَيّر الألوان فى نور نَبتها … فأشرق فيها وَرْدها وَبهارها
فمنهنّ مخضَرّ يَرُوق بَصيصه … ومنهن ما يَغشى اللِّحاظ احمرارها
وَمَن حفر الأنهار دون تـكلّف … فثار من الصم الصِّلاب انفجارها
ومن رتّب الشمس المُنيرا بيضاضها … غدوّا و يبدو بالعشىّ اصفرارها
ومن خَلق الأفلاك فامتدّ جَريها … وأحكمها حتى استقام مَدارها

وَمن إن ألمت بالعُقول رزيّة فليس إلى حى سواه أفتقـارها
تجدْ كل هذا راجعٌ نحو خالق له مُلْكها مُنقادة وائتمارها
أبان لنا الآياتِ فى أنبيائه فأَمكن بعد العَجْز فيها اقتدارها
فأنطَق أفواهاً بألفـاظ حكمة وما حَلّها إثغارها وأُتغارها
وأبرز من صُمّ الحِجارة ناقة وأسمعهم فى الحِين منها حُوارُها
لُيوقن أقوام وتـكفُر عُصبة أتاها بأسباب الهـلاك قِدَارها
وشق لُموسى البحرَ دون تـكلف وبان من الأمواج فيه انحسارُها
وسلم من نار الأنوق خليـلَه فلم يُؤذه إحراقُها وأُعترارها
ونَجّى من الطوفان نوحًاوقدهَدت به أُمة أبدى الفسوقَ شِرارُها
ومكّن داوداً بأيدٍ وابنه فتعسيرها مُلْقى له وبدارها
وذلّل جبّار البـلاد لأمره وعلّم من طـير السماء حِوارها
وفَضل بالقُرآن أمة أحمد ومكّن فى أقصى البـلاد مُغارها
وشقّ له بدر السماء وخَصّه بآيات حق لا يُخُـل مُعارها
وأنقذنا من كُفر أربابنا به وكان على قُطب الهلاك مَنارها
فما بالنا لا نترك الجهلَ ونْحنا لنسلمَ من نارٍ ترامَى شرارها

هنا أعزك الله انتهى ما تذكّرته إيجاباً لك ، وتقمناً لمسرتك ، ووقوفاً عنـد أمرك . ولم أمتنع أن أورد لك فى هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء ويُكثرون القول فيها ، موفيات على وجوهها ، ومفردات فى أبوابها ، ومنعمات التفسير ، مثل الإفراط فى صفة النحول ، وتشبيه الدموع بالأمطار وأنها تروى السفار ، وعدم النوم البتة ، وانقطاع الغذاء جملة ، إلا أنها أشياء لا حقيقة لها ، وكذب لا وجه له ، ولكل شىء حد ، وقد جعل الله لـكل شىء قدراً . والنحول قد يعظُم ولو صار حيث يصفونه لـكان فى قوام الذرة أو دونها ، ولخرج عن حد المعقول . والسهر قد يتصل ليالى ، ولـكن لو عدم الغذاء أسبوعين لهلك . وإنما قلنا ان الصبر عن النوم

أقل من الصبر عن الطعام ؛ لأن النوم غذاء الروح والطعام غذاء الجسد ، وإن كانا يشتركان فى كليهما ولكنا حكينا على الأغلب . وأما الماء فقد رأيت أن ميسوراً البناء جارنا بقرطبة يصبر عن الماء أسبوعين فى حمارّة القيظ ويكتفى بما فى غذائه من رطوبة .

وحدثنى القاضى أبو عبد الرحمن بن جحاف أنه كان يعرف من كان لا يشرب الماء شهراً .

وإنما اقتصرت فى رسالتى على الحقائق المعلومة التى لا يمكن وجود سواها أصلا ، وعلى أنى قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة أشياء كثيرة يكتفى بها لئلا أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم . وسيرى كثير من إخواننا أخباراً لهم فى هذه الرسالة مكنيّا فيها من أسمائهم على ما شرطنا فى ابتدائها . وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتب المَلكان ويحصيه الرقيبان من هذا وشبهه ، استغفار من يعلم أن كلامه من عمله . ولكنه إن لم يكن من اللغو الذى لا يؤاخذ به المرء فهو إن شاء الله من اللّمم المعفو ، وإلا فليس من السيئات والفواحش التى يتوقع عليها العذاب . وعلى كل حال فليس من الكبائر التى ورد النص فيها .

وأنا أعلم أنه سيُنكر علىّ بعضُ المتعصبين علىّ تأليفى لمثل هذا ويقول : إنه خالف طريقته ، وتجافى عن وجهته ، وما أُحل لأحد أن يظن فىّ غير ما قصدته ، قال الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا اجتنِبوا كثيرًا من الظّن إن بعض الظن إثم) .

وحدثنى أحمد بن محمد بن الجسورى ، ثنا بن أبى دليم ، ثنا ابن وضاح عن يحيى ابن مالك بن أنس عن أبى الزبير المكى عن أبى شريح الكعبى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إياكم والظن فإنه أكذب الكذب .

وبه إلى مالك عن سعيد بن أبى سعيد المَقبرى عن الأعرج عنْ أبى هريرة

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقُل خيراً أو ليصمت .

وحدثني صاحبي أبو بكر محمد بن إسحاق ، ثنا عبد الله بن يوسف الأزدى ، ثنا يحيي بن عائذ ، ثنا أبو عدى عبد العزيز بن على بن محمد بن إسحاق بن الفرج الإمام بمصر ، ثنا أبو على الحسن بن قاسم بن دحيم المصرى ، ثنا محمد بن زكريا الغلابى ، ثنا أبوالعباس ، ثنا أبو بكر عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه قال : وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه للناس ثمانى عشر كلمة من الحكمة منها : ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك عليه .

ولا تظن بكلمة خرجت من فى أمرىء مسلم شرّا وأنت تجد لها فى الخير محملاً . فهذا أعزك الله أدب الله وأدب رسوله صلى الله عليه وسلم وأدب أمير المؤمنين. وبالجملة فإنى لا أقول بالمراياة ولا أنسك نسكاً أعجميّا . ومن أدى الفرائض المأمور بها ، وأُجتنب المحارم المنهى عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه و بين الناس فقد وقع عليه أُسم الإحسان ، ودعنى مما سوى ذلك وحسبي الله .

والكلام فى مثل هذا إنما هو مع خلاء الذرع وفراغ القلب ، وإن حفظ شىء و بقاء رسم وتذكر فائت لمثل خاطرى لعجب على ما مضى ودهمنى . فأنت تعلم أن ذهنى متقلب وبالى مهصر بما نحن فيه من نبو الديار ، والخلاء عن الأوطان، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة فى البلاد ، وذهاب المال والجاه ، والفكر فى صيانة الأهل والولد ، واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الاقدار ، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا . وإن الذى أبقى لأكثر مما أخذ ، والذى ترك أعظم من الذى تحيّف ، ومواهبه المحيطةِ بنا ونعمه

التى غمرتنا لا تحد . ولا يؤدى شكرها ، والكل مِنَحه وعطاياه ، ولا حكم لنا فى أنفسنا ونحن منه ، و إليه منقلبنا ، وكل عارية فراجعة إلى مُعيرها . وله الحمد أولا وآخراً وعوداً و بدءا و أنا أقول :

جعلتُ اليأس لى حِصْناً و دِرْعًا　　فلم ألبس ثيابَ المُستضام

وأكثر من جميع الناس عِندى　　يَسير صانني دون الأنام

إذا ما صَح لى دِينى وعرْضِي　　فلستُ لما تولّى ذا أُهتمام

تولّى الأمس والغدُ لست أدرى　　أأُدركه ففيما ذا أُغتمام

جعلنا الله و إياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين . آمين آمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

﴿ تم طبع هذه الرسالة المعروفة بطوق الحمامة لأبي محمد على بن سعيد بن حزم بالقاهرة عام ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م ولله الحمد ومنه العون ﴾

فهارس الكتاب

فهرست الأبواب

فهرست الأعـــــلام

الصفحة

الصفحة

فهرست القبائل

فهرست الأماكن

فهرست القوافى